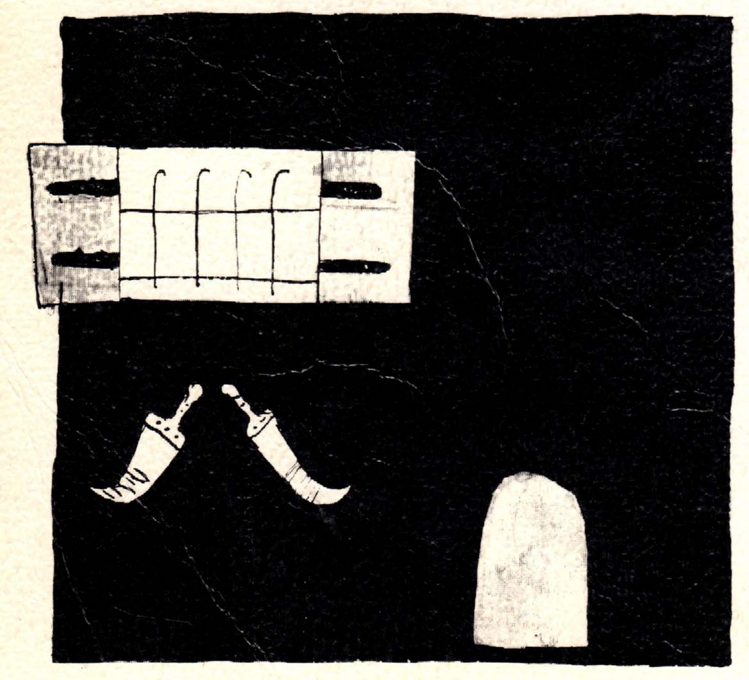
حكايات وأساطير يمنية

تأليف
علي محمد عبده



طبعة مزيدة ومنقحة

دار الكلمة - صنعاء

الطبعة الثانية ـ ١٩٨٥

دار الكلمة ـ صنعاء
شارع القصر الجمهوري
ص . ب : ١٣٠٣
ت : ٧٨٠٦٧
برقياً : المقحفى

حكايات وأساطير يمنية

تأليف

علي محمد عبده

دار الكلمة - صنعاء

مقدمة

بقلم: الدكتور علي الراعي

قضيت وقتاً حافلاً بالمتعة اقرأ هذا الكتاب الصغير: «حكايات وأساطير يمنية»، جمعها المثقف اليمني الاستاذ علي محمد عبده.

والاستاذ علي يعرف القيمة الحقيقية لهذه الحكايات والأساطير، فهي عنده محاولة من أفراد الشعب اليمني لتسجيل مواقفهم وعاداتهم وتقاليدهم وأفراحهم وأحزانهم. وهي في الوقت ذاته تصور الصراع بين الخير والشر، وبين الانسان وأعداء الانسان، وتعبر عن التفاؤل العريض الذي يحس به أفراد الشعب من ضرورة انتصار الخير على الشر، مهما أظلمت الحياة، وقست الظروف وتفنن الطغاة في التنكيل بالناس.

والكاتب يحس بالخطر الذي يتهدد هذه الحكايات ـ خطر الاندثار. فالاذاعتان الصوتية والمرئية، الى جانب المسجل، أخذت تحل محل عادة سرد الحكايات والاساطير. والهجرة التي يقوم بها الشباب الان من القرى الى المدن، أبعدت ما بينهم وبين حكايات وأساطير الماضي، وصرفت عقولهم وأرواحهم الى ما تعج به المدينة من وسائل التسلية.

لهذا انحطت هذه الحكايات والاساطير في نظر البعض الى مستوى «كلام العجائز أو حكايات النساء». وهذا ما دفع الاستاذ علي محمد عبده الى المسارعة بتدوين ما يذكر أو ما استطاع استقصاءه من هذه الحكايات، وزاد من حماسه في القيام بهذا العمل انه وجد بعض هذه الحكايات تماثل بعضاً من الأعمال الادبية الغربية. وهو رأي صحيح، سأحاول في تحليلي لبعض هذه الحكايات والاساطير

أن أؤ يده بشواهد تدعم ما وجده الاستاذ علي، وتناصر الدعوة المؤثرة التي توجه بها في مقدمته الى جمهور الكتاب اليمنيين والعرب كي يتخذوا من هذه الحكايات والأساطير مادة لأعمالهم، في القصة والرواية والمسرح.

الجرجوف

في الحكاية الأولى واسمها: «الجرجوف»، نجد أنفسنا مع سرب من الفتيات، قد تزين بخير ما يمكن من لباس وحلى، وخرجن يحملن الجرار على رؤوسهن. كان عددهن سبعا، غير أن أصغرهن كانت أفقرهن. لم تكن تلبس لباساً فاخراً ولا حليا، بل سترت نفسها بأسمال بالية.

سار سرب الفتيات وعيونهن تبحث في كل شجرة عن الدوم الذي خرجن لجمعه، حتى انتهين الى واد فسيح، انتصبت وسطه شجرة دوم كبيرة مثقلة بالثمار، حتى كادت هذه أن تغطي أوراق الشجر.

ووقفت الفتيات يتداولن فيمن منهن تتسلق الشجرة وتلقي الى الباقيات بالدوم. وواحدة بعد واحدة رفضت الفتيات تسلق الشجرة. هذه تخشى أن يتمزق قميصها الجديد، وتلك تعتذر بأنها استعارت ثوبها من أمها، فهي لا تملك المخاطرة به، وثالثة تضن بمنديل ورابعة بسروال وخامسة بسحبه.. وهكذا حتى وصل الأمر إلى الفتاة السابعة، الفقيرة.

لم تكن هذه تملك حجة واحدة تكفيها مشقة التسلق، فكل ملابسها مزق ولهذا وافقت — مكرهة — على التسلق، بعد أن وعدتها الفتيات بأن يملأن جرتها مع باقي الجرار. ووصلت الصغيرة بعد لأي الى الأغصان المثقلة بالثمار، فجعلت تهزها فتسقط الثمار، وتهرع الفتيات الى انتقاء الأفضل منها، والأنضج، ويتركن الأقل جودة او الأقرع للبنية المسكينة. وما أن امتلأت جرارهن، حتى غادرن المكان، تاركات البنت فوق الشجرة، تبكي وتتوسل وتستغيث، وما من واحدة منهن تأخذها بها شفقة.

ومر الوقت ولا من انسان تتوسل اليه الفتاة أن يساعدها. وفجأة رأت

شبحاً يتجه نحوها، وسرعان ما تبينت فيه «الجرجوف»[1]. كان قد شم رائحتها فاتجه اليها، واستغاثت البنت به كي يساعدها على النزول، فقال ان وراءه ستة جراجيف، سوف يلي الواحد منها الآخر، وترك لها أمر الاستعانة بواحد منهم ويأتي الجراجيف الستة، وكل منهم يحيلها الى من يليه. حتى وصل الجرجوف السابع، فوافق على أن يعينها على النزول على شرط واحد هو أنها اذا وقعت على اصبعه الخنصر فسيأكلها، واذا وقعت على الاصبع الأوسط فسوف يتزوجها، أما اذا وقعت على السبابة فسيعتقها، وان وقعت على الاصبع الأكبر فسوف يقتلها!

وتوافق الفتاة على هذا الشرط الخطر، وتلقي بنفسها فتقع على الاصبع الأوسط فيتزوجها الجرجوف من فوره، ويأخذها الى بيته، الذي يشبه بيوت الآدميين، وان كان يفوقها بما فيه من أثاث فاخر وحلى نادرة وأموال لا تحصى. وفي البيت حول الجرجوف نفسه الى شاب جميل، استمال قلب الفتاة بما أظهر لها من حب. ولكي يوفر لها المزيد من الثقة سلمها مفاتيح ست من غرف البيت السبع، ولكنه احتفظ لنفسه بالمفتاح السابع، وترك للزوجة الشابة حرية التجول في الغرف الست، وحذرها من أن تحاول دخول السابعة.

وبالطبع يثور فضول الزوجة الشابة، ويزداد فضولها ثم يتفاقم فلا تستطيع ان تمنع نفسها من محاولة معرفة ما بالغرفة المحظورة. وتبحث طويلاً حتى تجد المفتاح، فلما تفتح الباب تلقى نفسها أمام منظر مريع حقا. لقد امتلأت الغرفة بأشلاء الضحايا الذين افترسهم الجرجوف على مر الأيام. وكان للغرفة باب سري يدخل منه الوحش.

عودة الشقيق

كرهت الفتاة نفسها وحياتها مع الجرجوف، واستبشعت ان تقضي الأيام والشهور مع هذا الوحش المخضبة يداه وقدماه بالدماء. وحدس الجرجوف

(١) لا يشرح الكاتب معنى هذه الكلمة وان كان واضحا من الحكاية انه ما يسمى في حكايات المشرق: الغول.

السر، وأراد ان يستوثق، فقال لزوجته أنها قد عراها الذبول وأن صحتها ليست على ما يرام، فلعلها تحن الى أمها، التي تركتها وحيدة قبل الخروج مع البنات. واقترح الجرجوف ان يدعو اليها أمها، فوافقت المرأة على الفور. وعلى الفور أيضاً حول الجرجوف نفسه الى صورة أمها، وجعلت هذه تحاول ان تحصل من ابنتها على سر شقائها. وهمت الزوجة بأن تبوح بالسر ولكنها منعت نفسها في آخر لحظة. واضطر الجرجوف الى أن يحول نفسه الى أخ الزوجة والى صديقة لها، على التوالي، حتى ظفر من زوجته بما يؤيد شكوكه: لقد فعلت الزوجة المحظور. غير أن الوحش لا يبطش بالمرأة وانما ينصحها ـ وهو في هيئة صديقتها ـ أن تنسى ما حدث وأن تحاول التعايش مع الجرجوف. غير أن الفتاة تعجز تماماً عن ذلك.

وذات يوم شاهدت المرأة راعي غنم يرعى أغنامه على جبل يبعد عنها بمسافة فلوحت له بردائها، فلما جاءها تبينت فيه أخاها، فتعانقا، وأخبرها الأخ بأنه منذ اختفائها وهو دائب البحث عنها في كل يوم.

وبقي الأخ مع أخته حتى وقت الغروب، فجاء الجرجوف وشم على الفور رائحة الأدمي فقرر أن يبطش به. اقترح على زوجته أن يخرج مع أخيها الى السوق لشراء لحم، وفي الطريق غدر الوحش بالأخ، فذبحه وقطعه أجزاء أخذ بعضها وترك بعضا. فالتقطت حدأة الاصبع الأصغر للقتيل وكان يحمل خاتم الأخ، واتجهت به الى الزوجة وأخذت تصيح: واما مريم، قتل أخوك بين زمزم، وهذا هو اصبعه والخاتم. ثم القت للزوجة بالاصبع والخاتم.

وعاد الجرجوف بلحم الأخ المقطع وقدمه لزوجته على أنه لحم اشتراه، وطلب الى الزوجة ان تطهوه، ففعلت هذه مكرهة، وجلس الاثنان ليأكلا اللحم، فجعلت الزوجة تتظاهر بالأكل، وتجمع من اللحم ما استطاعت، فلما قام الجرجوف جمعت ما خلفه وراءه من لحم، ووضعت الجميع في حفرة صغيرة، وأخذت تسقي الحفرة وما فيها كل يوم.

وبعد أيام قليلة نبتت شجرة قرع أخذت تكبر وترتفع أغصانها، ثم أثمرت زهرة واحدة، تحولت من بعد الى قرن أخذ ينمو والمرأة تتعهده بالعناية صباح مساء، حتى نضج فقطفته وأخفته عن العيون، وداومت على العناية به حتى تشقق

ذات يوم، وخرج منه طفل صغير، فرحت به الفتاة وعقدت عليه الأمل في الخلاص، فقد علمت أنه أخوها وقد عاد الى الحياة من جديد.

وقالت الزوجة للجرجوف أنها رزقت منه بولد، ولم تخف الولد عنه، فترك هذا الولد يعيش في أمان، وان فعل هذا على مضض. وكبر الطفل وأصبح رجلاً، ووثقت المرأة من قدرته على قتل الجرجوف، فدفعت له بسيف معلق فوق رأس الجرجوف، وطلبت اليه ان يضربه ضربة واحدة ــ واحدة فقط، لا يلحقها بأخرى ولا بثالثة، فان الضربتين التاليتين كفيلتان بأن تنقذا الجرجوف من الموت.

ويعمل الفتى بنصح أخته، فيضرب الجرجوف وهو نائم مفتح العينين، ضربة أولى، ولا يسمع لرجاء الجرجوف له بأن يضربه ثانية أو يخطو على جسده، أو يتفل في وجهه. فلا يلبث الجرجوف ان يتخبط في حركته حتى يلفظ النفس الأخير.

ويعود الأخ وأخته الى قريتهما، محملين بما استطاعا نقله من كنوز الجرجوف.

ايزيس وأوزوريس

نقطة التقاء هذه الحكاية اليمنية بالاسطورة المصرية القديمة: «ايزيس وأوزوريس»، واضحة كل الوضوح: في كل منهما آدمي يقتل، وتقطع أوصاله، فتأتي امرأة وفية له، متعلقة بقضيته فتجمع الأشلاء وتتوسل حتى تعود هذه الأشلاء الى أصلها، ويعود صاحبها الى الحياة، وينتصر الخير على الشر. ان الجرجوف هو رمز الشر في الحكاية اليمنية، كما أن ست هو رمز الشر في الاسطورة المصرية. والحكاية اليمنية تجعل رمز الخير أخا للمرأة وابنا لها في الوقت نفسه، وتجعل انتصار الخير على يديه. أما الاسطورة المصرية فانها تجعل نصر الخير على يد الابن وحده، أي حوريس. غير أن هذا فرق هامشي، فان المرأة في الاسطورتين هي مهندسة النصر: توجه البطل، وتعلمه وتلقنه حتى يصل الى هدفه.

وفي الحكاية اليمنية ــ عدا هذا ــ ذلك الولوع الذي تجده في الأدب الشعبي والذي يدفع الادميين الى ولوج مملكة الوحوش والتعامل معها، والدخول

في معارك واياها، قد يقتل فيها الآدمي وقد ينتصر.

وقد كنت في طفولتي أسمع ـ مفتوناً ـ لأمي وهي تحكي حكاية شعبية اسمها «لونجا». وهي تشبه حكاية الجرجوف الى حد كبير. فان فتاة تسمى لونجا مع أخ لها اسمه حسن، فيضلان الطريق، وتقع لونجا في أسر غول مثل الجرجوف يأخذها هو الآخر الى بيته حيث تعيش معه مكرهة، الى أن تحين ساعة الخلاص، فتصبغ لونجا كل ما في البيت بالحناء وتنسى «الرق»، ثم يأتي الشاطر حسن فيأخذ الفتاة ويهربان معا ويجيىء الغول من بعد ويزعق على لونجا كي تدلي «شعورها الطوال» وتنقذ أباها الغول من الحر والجبال». وتروح الأشياء التي صبغتها لونجا بالحناء تلتمس للفتاة عذراً بعد عذر. فالفرن يقول انها مشغولة بالخبيز، والطشت يدفع بأنها تغسل الملابس، والغرفة بأنها تكنس المكان. ثم يأتي دور «الرق» الذي نسيت لونجا أن تحنيه فيكشف السر. ويثور غضب الغول فيأخذ يطارد لونجا والشاطر حسن، وكلما وضع هذان في طريقه العقبات تغلب عليها حتى يوشك المطاردان على السقوط في أسره، وفي النهاية يفلت الاثنان من فتك الأنياب الحادة.

وفي الحكاية اليمنية أيضاً ظاهرة المكان المحظور وهو الغرفة السابعة، وظاهرة العدد السحري وهو أيضاً الرقم السابع. فعدد الفتيات اللاتي خرجن لجمع الدوم سبع وعدد غرف بيت الجرجوف سبع أيضاً. كما أن عدد «الجراجيف» الذين توالوا على الفتاة وهي معلقة بالشجرة هو كذلك سبعة.

والقدرة السحرية التي يملكها الجرجوف على تقمص الشخصيات وتحويل نفسه الى أي منها في ثوان، هي أيضاً من السمات المشتركة في الحكايات الشعبية كلها. كما أن تداخل عالم النبات في عالم الانسان هو مسحة مشتركة كذلك. وفي الحكايات الشعبية المصرية يقتل الآدمي غيلة، فيدفنه شخص عزيز عليه ويتعهده بالسقيا حتى يرتد آدمياً من جديد. وفي هذ الحكايات أيضاً، كما في الحكاية اليمنية، يصادق الطير الانسان ويكشف له الاسرار، مثلما تفعل الحدأة في حكاية الجرجوف، وفيها كذلك رغبة دفينة في الانتصار على الموت. فأشخاص الحكاية الشعبية يقتلون ثم يعودون الى الحياة ـ الحياة الآدمية او النباتية.

الى جوار «الجرجوف»، هناك حكايات أخرى فاتنة، لعل أرقها جميعا هي حكاية «ورقة الحناء»، وهو اسم فتاة جميلة، ماتت أمها، فتزوج أبوها من أرملة لها بنت من زوج سابق. واسم البنت اكرام.

ولا تسمح المساحة بسرد هذه الحكاية الفاتنة، ولكن ما يدعو الى الدهشة فيها أنها تحوى في بعض أجزائها قصة الفتاة الجميلة الفقيرة المضطهدة «ورقة الحناء» التي تتزوج من ابن السلطان بعد حفل راقص نسيت فيه ورقة الحناء فردة حذائها، فجعل ابن السلطان يبحث بنفسه عن صاحبة الفردة الى أن وجدها وتزوجها. هذه هي قصة سندريلا، التي نرددها، ونتعلق بصاحبتها اسما ومضمونا، على حسبان انها بعض من الأدب الشعبي الغربي، وواقع الأمر أنها أيضاً جزء من أساطيرنا العربية في اليمن.

وفي هذه المجموعة من الحكايات حكاية فكاهية طريفة، بطلها يحمل صفات واضحة من شخصية دون كيشوت. فهو يعيش في الخيال ليهرب من واقع مر هو هنا خياط اسمه حسن، عرف بالبلاهة والجبن، ودأب الحظ على معاندته، فما من زبون واحد يطرق بابه. ومن ثم تحتقره امرأته وتروح تتخذ لنفسها عشيقاً من دونه.

ولا يجد حسن ما يفعله سوى قتل الذباب، وهو يحسب أن ما يقتله هو آدميون ويذهب إلى امرأته آخر اليوم فيقول: قتلت كذا من الأعداء وجرحت كذا وفر الباقون. يفعل حسن هذا ويتغنى ببطولاته في كل مرة حتى تصدقه زوجته آخر الأمر فتتخلص من عشيقها، وتأخذ زوجها مأخذ الجد.

وتطير شهرة حسن والشجاعة التي هبطت عليه فجأة، فيستخدمه السلطان في التخلص من عدوين له لدودين. الأول وحش مفترس، يقبع عند أسوار المدينة ليبطش بمن يدخل اليها أو يخرج منها. وهذا يتغلب عليه حسن بمحض الصدفة فانه يخرج خارج المدينة على رأس دابة محملة بمحلة فيها أقراص خبز وحبات نبات مخدر. ويربط حسن الدابة الى شجرة، ويتسلقها خوفا على نفسه من الموت فيأتي

الوحش ويأكل الدابة ويعبث بمحتويات المحلة، ويلتهم الأقراص والحبات المخدرة فيصيبه الخدر وتبطل حركته. ويستيقظ حسن مع الفجر فيلجم الوحش ويركبه الى المدينة، وهو لا يدري حقيقة ما جرى. وبالطبع يعتبره الكل بطلا مغوارا، بينما هو تذهب نفسه شعاعاً كلما تذكر ما حدث.

وبالصدفة أيضا يحرر حسن السلطان من عدوه الثاني، وهو ثائر متمرد كان يعد العدة لغزو البلاد والاستيلاء على الحكم، وهذا يخيفه حسن ــ دون أن يدري ــ بمجرد نطق اسمه مجرداً من كل لقب. وكانت بطولات حسن سبقته الى مكان الثائر، ولذا يستسلم الرجل، خاصة وأن حسن لا يقاتله بل يعانقه، مما يجعله يظن أن حسن قد جاء معه بعفو السلطان. ويتوجه الجميع في موكب كبير الى قصر السلطان حيث ينعم السلطان على دون كيشوت اليمني بالخلع والأموال.

وكم هي رقيقة وفاتنة الحكايات اليمنية الأخرى التي تضمها هذه المجموعة حكايات مثل: « جليد الحمار » و« وسيلة » و« بشيبة ولا كل الشباب » وهي جميعها مليئة بالحكمة والمتعة والخيال المجنح.

انني أضم صوتي الى صوت الاستاذ علي محمد عبده في حث الكتاب العرب على النظر المدقق في هذه الحكايات، قصد اتخاذها مادة لفنونهم في القصة والرواية والمسرح. ان إحدى هذه الحكايات واسمها: صاحبة التويقت (أي المتسولة) تكاد تصرخ طالبة من يستخدمها في عمل مسرحي. بل ان الشخصية النسائية فيها لتقوم بالتمثيل. فهي متسولة تزوجها رجل غني، فلما مرت عليها الأيام والشهور حنت الى مهنتها، وأخذت تمثل لنفسها دورين: دورها هي كمتسولة، ودور المحسن او المحسنة التي تتوجه اليه أو اليها بالتسول. ويضبطها زوجها وهي تتسول من نفسها، فيتأكد أنها ما خلقت لنعيم البيوت وانما سعادتها في حياة التنقل، فيطلقها وهو يقول: المتسولة تحن الى ماضيها.

علي الراعي

بالقدر الذي تعتبر فيه أغاني القرويين وسيلة للتعبير عن ما تجيش به نفوسهم من مشاعر وأحاسيس مختلفة، من آمال وأفراح، وهموم وأحزان، فان الحكايات والأساطير المنتشرة بينهم تعتبر بالقدر نفسه وسيلة لتسجيل وتصوير لكثير من جوانب حياتهم ، وما يتعرضون له من ظلم وقهر وما يحلمون به من عدل وخير ، وما يصادفونه من عقبات في صراعهم اليومي مع الحياة .

فبواسطة هذه الحكايات والأساطير خلدوا كثيرا من قصص حياتهم، ومواقفهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، وأفراحهم، وأحزانهم، مجسدين فيها الصراع بين الخير والشر وبين الانسان واعداء الانسان.

واذا كانت الأغاني، او كانوا يرددون الأغاني بأصواتهم العالية، ويرسلونها على سجيتهم في المراعي والمزارع وعند آبار المياه ومطاحن الطعام، فان الأساطير والحكايات يروونها في مجالسهم بأصوات خافتة كما لو كانت منشورات، او نشرات سرية، وهي غالبا تروى للصغار خاصة قبل ان يناموا. . تروى لهم بصورة شكوى مظلوم أو سيرة بطل أو قيم وعادات.

ان حياتنا وتراثنا مليئة بهذه الحكايات والأساطير التي ما من طفل قروي الا ورويت له أكثر من مرة في ليال متعاقبة، وهي حكايات وأساطير لا يعرف أحد عن كثير منها . . متى قيلت، ولا من هو قائلها، وما منها الا وتناولت حياة فرد أو أسرة أو تعرضت لصراع اجتماعي أو لحالة سياسية معينة لم يستطع المواطنون مقاومتها او معارضتها فلجئوا الى نسج الحكايات والأساطير حولها، ليخلدوا مقاومتهم لها

وموقفهم منها، ويا ليتهم أشاروا الى الفترة الزمنية فيها ليعرف الانسان في أي عهد قيلت. والشيء الذي يلفت النظر ويسترعي الانتباه في بعض أساطيرنا اليمنية هو أنها لا تجعل محورها الصراع بين الانسان وأخيه الانسان وحدهما، وانما تنقله الى صراع بين الانسان وبين كائن حي مزيجا من الوحش، والانسان يتخذ له في كل اسطورة اسما يعيش على لحوم الآدميين ويتقمص شخصية من يريد، كما هو الحال في اسطورة (الدجرة) و(الجرجوف).

ولكن مهما أظلمت وقست الظروف وتفنن الكائن الحي او اللقيطة في أساليبه وتنكيله بالانسان، فان الانسان الخير يتغلب في النهاية وينتصر على أعدائه.

هذه الأساطير التي امتلئت بها رؤوسنا وآذاننا في عهد الطفولة بالقرى، أخذت تتبخر وتتلاشى من أذهاننا تدريجياً بعد انتقالنا الى المدن والاستقرار فيها، ولم نعد نرى فيها سوى انها (كلام عجائز) و(سمامى نسوان) ولكن ما جعلني اهتم بها وأحاول أن أتذكر وأتقصى أكبر قدر منها هو عثوري على صور منها أو شبيهة لها من أعمال أدبية غربية.

فمنذ عدة سنوات قرأت قصة مترجمة عن الالمانية تحمل اسم كاتب الماني، فوجدتها شبيهة بحكاية (وريقة الحنا) فشد ذلك انتباهي الى (كلام العجائز) و(سمامى النسوان) في قرانا وما تحويه بعضها من شبه أساطير وحكايات الشعوب الأخرى التي تتكلم لغة غير لغتنا مما يدل على أن بعضها قيل بأكثر من لغة. وهناك قصة انجليزية من قصص الأطفال سمعت بها تقول: (اشم ريحة انسان سآكله مع فطوري) ذكرتني بأسطورة (الجرجوف).

بعدها وجدت في المقدمة الرائعة التي كتبها الدكتور طه حسين لترجمته (أوديب) وتصويره لصراع الانسان مع القضاء والقدر، ومحاولة الانسان هروبه مما كتب له، كما صنع الملك (فلايوس) الذي قال له الكهنة أن طفله الرضيع سيقتله وسيتزوج من أمه، وأوديب الذي هرب هو الآخر من قصر الملك الذي تبناه ليتجنب ما قاله الكهنة عنه بأنه سيقتل أباه وسيتزوج أمه، فكأنما سعى بهروبه

ذلك أن يذهب ليقتل أباه وليتزوج أمه (ولا حذر من قدر) . . أسطورة أوديب هذه ذكرتني بأسطورة (جليد أبو حمار).

هذه المقارنة في أوجه الشبه بين أساطيرنا وبين من يحولها الى روائع أدبية خالدة أرى أن أساطيرنا وحكاياتنا لا تقل روعة ولا تختلف مضموناً ومحتوى انسانياً عن أساطير الشعوب الأخرى، ولو وجدت من يحولها الى روائع أدبية لكانت قيمتها الأدبية بمستواها.

ولكن لما كان تداول هذه الأساطير والحكايات اليمنية قد عاش محصوراً أو مقصوراً على القرى وحدها، وان بعض القرى والمناطق احتفظت بحكاياتها الخاصة بها تتداولها وحدها ولا يعرف الآخرون عنها شيئا، مثل (حكم الفراسة) و(التلويح) و(الحية) في المناطق الشمالية . . وحكايات (بشيبه ولا بكل الشباب) و(صاحبة التويقت) و(الحراب) في الحجرية . . وهناك حكايات تروى في مدينتي «حيفان» و«الحديدة» بتعبيرين مختلفين يؤديان نفس المعنى، لما كان ذلك محصوراً تداوله في القرى، وبعضه بهذه الصورة التي أسلفنا، ولما كان ذلك هو وحده الذي ضمن لها البقاء وخلدها في بعض الأذهان حتى وقتنا الحاضر الذي تعرضت فيه للاهمال وتغلفت بالنسيان، بسبب تطور الحياة في القرى واستفادتها بكثير من منجزات العلم والوسائط الحضارية التي يعتبر «الراديو» اولا و«المسجل» ثانياً، ضمنها أو في مقدمتها، لأنهما حلا في القرى محل سرد الحكايات والأساطير وتبادلا روايتها، الى جانب عوامل الهجرة الكبيرة المنتشرة بين الصغار (الذين تعتبر صدورهم وأذهانهم اللوحة التي تكتب عليها تلك الاساطير، والأشرطة التي تسجل عليه) الى المدن التي غدت مثقلة بكل ما يسلي الانسان ويشغل ذهنه ويملأ فراغه.

عندها رأيت أن أقوم بمحاولة متابعة وتسجيل ونشر هذه الحكايات والأساطير، ان لم يكن لحفظها من الاندثار والنسيان، فلكي يتعرف عليها كثير من الشباب الذين يجهلونها، ولكي تكون في متناول كبار كتابنا وأدبائنا اذا ما أراد أي منهم أن يجعل منها روائع أدبية يمنية.

صنعاء ٢٠ سبتمبر ١٩٧٧
علي محمد عبده

الجرجوف

ذات يوم من أيام زمان خرج سرب من الصبايا من قريتهن يحملن على رؤ وسهن جراراً فارغة باحثات عن ثمار الدوم فوق أشجار العلب، وكلهن أمل أن يعدن الى القرية وقد ملئت جرارهن بها.

كان عددهن سبع صبايا متقاربات الاعمار متشابهات الملابس والزينة، اذ عمدت كل صبية الى ارتداء أحسن ملابسها أو ملابس أمها وتزينت حليها، الا ان الصغيرة كانت تختلف عنهن مظهراً، اذ انها لا ترتدي سوى أسمال بالية.

واصلن السير وعيونهن تبحث في كل شجرة «علب» عن ما على اغصانها من ثمار، حتى أدى بهن السير الى واد فسيح انتصبت وسطه شجرة علب كبيرة مثقلة بالثمار التي كادت تغطي أوراقها الخضر.

وقفن تحتها ينظرن الى الثمار المعلقة ويتشاورن في طريقة تمكنهن منها، فلم يجدن بدا من طلوع واحدة منهن شجرة العلب لقطف ثمارها، أو لهز أعشابها المثقلة ليتساقط ما عليها من ثمار، فتعلقت عيونهن بالفتاة الكبيرة وقلن لها:

ــ إطلعي أنت ونحن سنساعدك وسنملأ جرارنا مع جرتك بالتساوي.

رفضت الكبيرة الطلوع معتذرة بخوفها على الثوب الجديد الذي ترتديه من أن يشتبك بالأشواك ويتمزق فأجابت معتذرة:

ــ قميص أمي الجديد بايختزق

فقلن للتي تليها:

ــ اطلعي أنت

أجابت معتذرة:
ـ «زنه» ثوب أمي الجديد باتختزق
قلن للثالثة:
ـ اطلعي انت
ـ «مقرمة» أمي الجديد باتختزق
ـ اطلعي انت
ـ منديل أمي الجديد بايختزق
ـ اطلعي انت
ـ سروال أمي الجديد بايختزق
ـ اطلعي انت
ـ سبحة أمي الجديدة باتقتطع
ـ اطلعي انت

قبل أن تجيب السابعة وهي الصغرى بينهن أخذت عيونها تتفحص ملابسها لتعتذر بأي قطعة منها مثلما صنعت رفيقاتها الست، فلم تجد سوى أسمال بالية تعلو جسمها فوافقت عل الطلوع خاصة وقد وعدنها بملأ جرتها مع جرارهن، فتسلقت الجذع بمساعدتهن، واحدة تسندها واخرى ترفعها حتى تمكنت من الطلوع فصفقن فرحاً لأنهن سيحصلن على ما يطلبن من ثمار الدوم (حبوب البعار).

أخذت الفتاة الصغيرة تتنقل بين فروع الشجرة تهزها لتساقط ثمارها الى الأرض والصبايا يجمعن ما يتساقط، وكل واحدة منهن تحتفظ لنفسها بالثمار الناضجة في جرتها، وتجمع الثمار القارعة في جرة الصبية الصغيرة، المشغولة بقطف الثمار وهز الاعشاب.

عندما امتلئت جرارهن بالثمار الناضجة الحمراء حملت كل واحدة منهن جرتها على رأسها، وسرن عائدات الى القرية، تاركات رفيقتهن الصغيرة فوق الشجرة رافضات مساعدتها على النزول، او الاستجابة الى توسلاتها، فبقيت تراقبهن عائدات الى القرية بدونها، وهي تبكي حظها ولا تدري ماذا تصنع لتخلص نفسها.

تعلقت عيونها بطرف الوادي، لعلها تشاهد أحداً يساعدها على النزول، الا ان الوقت أخذ يمر عليها والخوف يملأ نفسها من المبيت أعلى الجذع، وازداد تعلقها بأطراف الوادي، وكلما طال الانتظار تضاعف الخوف، وتمنت لو أن رفيقاتها الغادرات نقلن لأمها خبرها.

بينما هي تفكر في ذلك شاهدت شبحاً يتحرك نحوها أسفل الوادي فركزت نظراتها نحوه وعلقت عليه الأمل. كان الشبح الذي رأته قادماً نحوها هو (الجرجوف) الذي تسربت الى خياشيمه ريحتها عندما اقترب من الشجرة دون ان يشاهدها أو يعرف مكانها.. وقبل أن تناديه ليساعدها سمعته يقول:

ـ عرف عرماني، با اقرطه على ضرسي وسناني

أجابته الفتاة متوسلة:

ـ أنا واعم جرجوف ساعدني على النزول

أجابها الجرجوف دون ان يلتفت اليها، بقوله:

ـ أنا جرجوف، بعدي جرجوف، بعده جرجوف، بعده جرجوف، بعده جرجوف، بعده جرجوف، بعده جرجوف وبطني معطوف «سعا» قبة الصوف.

أجابها بذلك وواصل سيره وهي تتابعه بنظراتها حتى غاب، واذا بجرجوف آخر يقبل نحوها من المكان الذي جاء منه الأول، وعندما اقترب منها شم ريحتها وردد ما قاله الأول، متوعداً بأكل من شم ريحته فأجابته تعرفه بنفسها وتطلب منه مساعدتها، الا انه واصل سيره وهو يجيبها بعدد الجراجيف الذي تتبعه منقصاً عدداً واحداً منهم.

مر ثالث، ورابع، وخامس، وسادس، متتابعين وكل واحد يردد عند اقترابه من الشجرة عندما يشم ريحتها ما ردده الأول. فتعرفهم بنفسها وتطلب مساعدتهم فيعتذرون لها بنفس الاجابة، وكل واحد ينقص عد جرجوف من الذي بعده.

عندما اقترب الجرجوف السابع وشم ريحتها قال يخاطبها مثلهم:

ـ عرف عرماني با اقرطه على ضرسي وأسناني.

أجابته الفتاة:
ــ أنا واعم جرجوف، ساعدني على النزول.

لم يواصل السابع سيره مثل رفاقه، وانما توقف بجانب الشجرة ينظر اليها ويجيبها:
ــ سأساعدك على النزول، ولكن على شرط.

فرحت الفتاة بموافقته على مساعدتها، وسألته عن شرطه فقال وهو يمد نحوها يده اليمنى:
ــ اقفزي وأنا سأتلقفك بيدي.

وأضاف وهو يحرك أصابع يده واحدة بعد أخرى مبتدياً بالخنصر:
ــ اذا وقعت على هذه باآكلك، واذا وقعت على هذه بارجعك مكانك، واذا وقعت على الوسطى با اتزوجك، واذا وقعت على السبابة بااعتقك، واذا وقعت على الكبيرة با اقتلك، هل انت موافقة؟

لم تفكر بشروطه، فوافقت عليها خوفاً من البقاء أعلا الجذع بمفرها، فقفزت من مكانها لتقع على اصبعه الوسطى فتزوجها.

ارتاحت الفتاة لخروجها من المأزق، ورضيت بحياة الزوجية مع الجرجوف فحملها الجرجوف معه الى بيته الواقعة على سفح تل يقع على مقربة من الجبال الشاهقة، لتجد بيت الجرجوف لا تختلف عن بيوت الآدميين الا انها تفوقها بما تحويه من أثاث ومتاع كثير وحلى نادرة وأموال لا عد لها ولا حصر يحسده عليه الاغنياء.

وفي البيت تحول الجرجوف الى شاب جميل ووسيم استمال قلب الفتاة واستهواه. خاصة عندما راح يتودد لها ويعاملها بلطف ورقة فاطمأنت له واستأنست به وقنعت بالحياة معه.

حرص الجرجوف على أن يوفر لها جو الثقة والاستقرار ويرغب لها الحياة معه فسلمها مفاتيح ست غرف من غرف منزله السبع محتفظاً بواحدة لنفسه، عرفها على محتويات كل غرفة منها اذ خصصت كل غرفة لحفظ شيء معين، من

الاموال والحلى والغلال، تاركاً لها حرية التصرف والتمتع والانفاق بكل تلك الأموال والثروات التي كانت فوق ما تطيق حمله أو مشاهدته أو السماع عنه، ناهيك بحرية التصرف به.

الا ان الجرجوف اشترط عليها عدم الاقتراب من الغرفة السابعة التي احتفظ بها لنفسه، ولا تشتاق لمعرفة ما بداخلها ولا تسأله عنها، فوافقت على شروطه. استمر الجرجوف يواصل حياته المعتادة يغادر منزله في الصباح ويعود اليه عند منتصف النهار وعند الغروب تاركاً الفتاة لوحدها في البيت تنتظر عودته وعندما تخلو لنفسها تبقى تتجول بين محتويات الغرف المخصصة للذهب والفضة والجواهر محاولة احصاءها فلم تستطع لكثرتها، فبقيت تحدث نفسها، وتسائلها عن مصدر ذلك، وعن الغرفة السابعة التي اشترط عليها عدم الاقتراب منها.

لماذا منعها منها، وماذا عساه يكون بداخلها؟

صممت على اكتشاف سرها ومعرفة ما بداخلها، وراحت تبحث عن مفتاح الغرفة الذي يخفيه عنها حتى عثرت عليه، فأسرعت تفتح قفلها فرحة لترى ما يخفى وراء بابها.

دفعت الباب بيدها لينفتح بعض الشيء ولتتسمر هي في مكانها فاغرة الفم مشدوهة الفكر مما شاهدته ولم تصدق ان ذلك حقيقة، ففركت عينيها وفتحتها ثانية لتعاود البحلقة بمحتويات الغرفة لعلها تشاهد غير الذي رأت، ولكنها لم تشاهد الا ما شاهدته في الأول، فلم تقو على الاستمرار في النظر الى داخلها فأغلقت الباب وأرجعت المفتاح الى مخبئه.

وجدت الغرفة مكتظة بجثث الآدميين وبقايا لحومهم، جماجم مبعثرة، أقدام مقطعة، اكف وأصابع متناثرة وأجزاء من الأجسام محتفظاً بها الى وقت واكتشفت بابا سرياً يدخل منه الجرجوف.

جلست الفتاة تفكر بما شاهدت فتغيرت حياتها ونفسيتها، ذهب عنها السرور بعد ان عرفت ما عرفت لم تكن تجهل طبيعته يوم طلبت منه مساعدتها على النزول من الشجرة وقبولها شرطه الذي غدت بموجبه زوجة له.

لكن تحوله الى انسان رقيق وجميل، وما تحويه غرف منزله من أموال وأثاث هو الذي استهواها وكاد ينسيها ماسمعته من حكايات في القرية عن آكلة الآدميين، فهل أخطأت في الاستعانة به. واذا لم تستعن بي فماذا كان بمقدورها ان تصنع؟

كرهت نفسها وحياتها، وتمنت لو انها قادرة على الهروب منه ومغادرة بيته، لكن أنى لها ذلك وهو على قيد الحياة؟ وتصورت الساعات التي تقضيها في البيت معه، تصورتها أياماً وشهوراً فزادت كراهيتها لنفسها وحياتها معه، ومع ذلك حرصت على أن تكون طبيعية أمامه مخفية ما يملأ نفسها من مشاعر غير ان اضطرابها وتغير ملامحها فضحها أمامه فساوره الشك ان تغيرها المفاجيء يعود الى فتحها الغرفة السابعة، فصمم على التأكد من ذلك.

أخذ يطمئن على صحتها ويستفسرها عن ما تشكو منه فلم تشك له شيئا محدداً وقالت ان ما بها من توعك سيزول من تلقاء نفسه، مضى اليوم الأول والثاني دون أن يعرف سرها او تتحسن صحتها فقال لها:

ــ الأحسن أتصل بأمك وأدعوها لزيارتك.

اعترضت أول الأمر، لكنها وافقت اذ ربما تجد في زيارتها بعض الترويح عن نفسها.

تقمص الجرجوف شخصية أمها وتصور بصورتها وأتى لزيارتها ففرحت الفتاة بمشاهدة أمها ورحبت بها وعادت لها بعض حيويتها، الا أنه راح يسألها:

ــ كيف تغيرت هكذا وهزلت، ربما يكون قاسياً عليك أو سمعت منه ما سبب مرضكِ.

همت الفتاة ان تبوح بما في نفسها، الا أنها تراجعت، لم تشأ أن تتعب أمها بمشاركتها همومها لئلا تعود كئيبة النفس لا تقدر على مساعدتها، فقالت مجيبة:

ــ لم أسمع منه الا كل طيب، ولا أرى الا كل الخير.

ودعتها أمها وهي تدعو لها بالشفاء وتقول:

ــ سأكلم أخاك يجي لزيارتك.

لم تعترض الفتاة على زيارة أخيها وانما رحبت به وبقيت تنتظر زيارته، فتقمص الجرجوف شخصية أخيها وتصور بصورته وأتى لزيارتها، ففرحت به وسرت لمشاهدته الا أنه ألح عليها في معرفة سبب شحوبها وظمورها. همت أن تبوح له بما يملأ نفسها من أسى، الا أنها عدلت مخافة أن يخبر أمها. فأنكرت أن يكون فيها ما يدعو لذلك ودعها وانصرف عائداً وأشعرها أن صديقتها ستأتي لزيارتها.

تقمص الجرجوف شخصية صديقتها وتصور بصورتها وأتى لزيارتها فاستقبلتها فرحة بزيارتها، الا أن صديقتها أبدت حزنها على ما تراه من حالها، وجلست بجانبها، كل واحدة تبث الأخرى ما في نفسها، وعندما سألتها عن ما تشكو منه أجابتها:

انه يوفر لي كل شيء، الا اني اشتقت لمعرفة ما تحويه الغرفة السابعة التي يحتفظ بمفتاحها، ففتحتها لأجدها ممتلئة بجثث الآدميين يحملها اليها ويبقى يأكل فيها فاقشعر بدني وكرهت نفسي الحياة داخل هذا البيت. أدرك الجرجوف أن ظنه كان في محله، فراح يطمنها على لسان صديقتها وينصحها بعدم الالتفات الى ما يعمله وتقدر النعيم الذي تعيشه فأبدت الفتاة موافقتها وودعتها وانصرفت.

حاولت الفتاة في بادي الأمر ان تعمل بوصية صديقتها الا أنها مع الأيام غدت لا تطيق الجلوس داخل البيت بمفردها، فالجثث والأشلاء تتمثلها في كل غرفة وتتصورها في كل شيء تقع عليه عينها أو تلامسه يدها، فراحت تقضي سحابة يومها خارج البيت تتطلع الى من سيخلصها أو تشكو له محنتها، ولا تدخل البيت الا للضرورة.

ذات يوم شاهدت راعي غنم يرعى أغنامه على جبل يبعد عنها بمسافة، فلوحت له بردائها لكي يراها فشاهدها الراعي ولوح لها بردائه، فأشارت اليه أن يقترب منها، فأخذ ينحدر من أعالي الجبل ويشق الوادي سيراً الى أن وصل اليها. وكم كانت مفاجئتها الاثنين عندما تلاقيا، فقد كان الراعي أخاها.

ما أن عرفها حتى أحاطها بذراعيه يعانقها ويقبلها بحرارة ودموع الفرح

تنهمر من عيونه لمشاهدتها، وأخبرها بشوقهم لها، وأنه لم يكف عن البحث عنها من يوم خرجت من البيت، يسوق الأغنام كل يوم من جبل الى جبل يبحث عنها.

أدركت الفتاة ان الجرجوف كان يتقمص صور أهلها ويأتي لزيارتها ليوهمها أنهم زوارها، وأن الجرجوف عرف سبب قلقها واضطرابها ونفورها، وسردت على أخيها كل ما جرى لها، الى أن حان أوان عودة الجرجوف فأخفت أخاها عنه، الا أن الجرجوف شم ريحة انسان غريب عند دخوله البيت فقال:
ـ عرف عرماني يا اقرطه على ضرسي وأسناني.

أنكرت الفتاة وجود أي انسان قائلة له:
ربما شميت ريحتي، والا من سيأتي الى هنا. لم يلتفت لقولها وراح يبحث عن الانسان المختفي متتبعا الريحة والفتاة تسير وراه يملأ الخوف نفسها الى أن عثر على أخيها فتقدمت تترجا الجرجوف ان لا يسيء لأخيها فتظاهر أمامها بالفرح لوجوده بينهم، وابتسم له مرحبا بحضوره والغضب يملأ نفسه من بقائه مع أخته، فقرر التخلص منه في أسرع وقت.

قال لزوجته مستأذناً للخروج:
با اروح السوق لشراء اللحم، وباخذ أخيك معي ليتعرف على السوق.

لم تستطع الاعتراض، وخافت على أخيها من غدره فتقدمت اليه تترجاه ان لا يغدر بأخيها ويأكله وتكرر رجاءها وهي تلثم يده والجرجوف يطمنها ويعدها بأن لا يمسه بسوء، ابتعد عنها خارجاً وأخاها يسير وراءه الى حيث لا يدري.

ما أن ابتعدا عن البيت وغابا في جانب من الوادي حتى عمد الجرجوف الى ذبح الولد وسلخه وتقطيع جسمه الى أوصال وقطع صغيرة أخذ بعضها معه وترك الباقي منثوراً هناك.

التقطت الحدأة (الصرورة) الأصبع الصغير ليده وعليها خاتمه، وطارت بها في اتجاه بيت الجرجوف وسقطت على شجرة تطل على الفتاة الجالسة على سطح البيت، وأخذت الحدأة تصيح وتردد مخاطبة الفتاة الجالسة تحتها:

ـ وامريم، وامريمه
خييك قتل ببير زمزمه
وهذي الاصبع والخيتمه

رفعت الفتاة رأسها نحو الحدأة وكأنها تقول لها لقد عرفت ان الجرجوف غدر بأخي، الا ان الحدأة استمرت تصيح وتكرر قولها كما لو كانت ترثي الولد بصياحها، وقبل أن تطير القت بالأصبع الى حضن الفتاة، فتناولتها لتتعرف عليها وعلى الخاتم واخفتهما لئلا يشاهدهما الجرجوف عندما يعود، وطوت حزنها على أخيها الذي أملت خلاصها على يديه.

عاد الجرجوف بمفرده فسألته:
ـ لماذا لم يعد معك أخي؟
أجابها يقول:
في الطريق قرر العودة الى القرية ورفض المجيء معي حتى ليودعك، فتركته وشأنه.

لاذت بالصمت وتظاهرت بالتصديق، وتناولت منه اللحم الذي أحضره معه وطبخته وهي تذرف الدموع لاضطرارها طبخ لحم من جسم أخيها، وأثناء تناول الغداء جلست معه عل المائدة توهمه بمشاركته الأكل، وهي كلما تناولت لقمة أو قطعة لحم ترفعه الى قرب فمها لتلقيها من فتحة ثوبها تحت الذقن لتستقر خلفية الثوب عند بطنها والجرجوف منهمكاً في حشو بطنه باللحم لا يلتفت اليها. تظاهرت بالشبع وقامت، وبعد أن شبع وقام جمعت كل قطع اللحم التي اخفتها وحفرت في المشتل (المشقار) حفرة صغيرة دفنت فيها الاصبع التي حملتها الحدأة مع اللحم الذي جمعته، وردمته بالتراب، وأخذت تسقيه بالماء صباح كل يوم.

ما هي الا أيام حتى نبتت في المشقار شجرة قرع (دبا) أخذت تكبر يوماً بعد يوم وتمتد على السطوح والفتاة لا تكف عن العناية بها وريها حتى أثمرت الشجرة زهرة واحدة تحولت الى قرن (جعنان) أخذ ينمو ويكبر والفتاة تتعهده صباح مساء حتى نضج ويبست الشجرة فقطعته منها وأخفته لتستمر في عنايتها به الى ان تشقق

ذات يوم وخرج منه طفل صغير فرحت به الفتاة وعقدت عليه الأمل في الخلاص .

كان الطفل أخاها الذي قتله الجرجوف وأكل لحمه ثم أعادت هي غرس اصبعه مع ما جمعته من لحمه في الشتل وتعهدته بالسقيا حتى عاد الى الحياة من جديد، فلم تخف فرحتها به دون أن يساورها الخوف عليه ولم تخفه عن الجرجوف هذه المرة، وعندما شم ريحته واستنكر وجوده وقال سيأكله، أجابته بثقة انها رزقت بولد وشم ريحته، فلم يدر الجرجوف ماذا يصنع عندما سمع قولها وريحة انسان غريب يملأ خياشيمه، الا ان عدم اخفاءه والتستر عليه جعله يصدق قولها فتركه يعيش في أمان ليعيش هو على مضض وخوف من وجوده.

استمرت الفتاة تعتني به وتتعهده وهو ينمو ويكبر الى أن تأكدت من مقدرته على قتل الجرجوف وتخليصها منه ، فكانت تجلس معه وتحدثه وتعرفه بما يجهل عن طباع الجرجوف وطبيعته قائلة له :

ــ الجرجوف لا يؤثر فيه أي سلاح ، ولا يقتله أي سيف ، إلا سيفه المعلق فوق رأسه حيث ينام . فاذا ضرب به ضربة واحدة مهما كانت صغيرة ففيها نهايته ، فاذا صدقه قوله وأمتثل لأمره بأن يضربه ضربة ثانية أو يخطوه أو يبصق عليه ، فان في ذلك شفاءه من جروحه وسرعان ما تلتئم ويعود الى قوته الأولى يأكل من حاول قتله.

وعندما تضربه بسيفه مهما كانت الضربة صغيرة لا تخف منه وإذا قال لك اثنيني :

قل له ــ لاثنا أبي ولا أمي
واذا قال لك اخطني:
قل له ــ قصرت رجلي
واذا قال لك اتفلني
قل له ــ جف ريقي

كانت تتكلم وأخوها يصغي لها، وعندما تأكدت ووثقت من حفظه

للأوصاف القائلة للجرجوف، وانه سيطبقها، أخفته وراء حصيرة ملفوفة في الغرفة التي ينام فيها الجرجوف وهي تؤكد له:

ـ اذا رأيت عيونه مفتوحة فتأكد انه نائم لا يحس بأي حركة، واذا رأيت عيونه مغمضة فتأكد أنه مستيقظ يتابع كل حركة، فكن حذراً من القيام بأي حركة قبل أن أشير لك.

عندما عاد الجرجوف الى بيته، واتجه لينام، جلست هي قبالته تراقبه حتى تأكدت من نومه فأشارت لأخيها الذي خرج بحذر وتناول سيف الجرجوف المعلق وسله لضربه في عنقه.

صاح الجرجوف صيحة ذعر لها الولد وخاف من انتقامه الا أن أخته شجعته مؤكدة له موت الجرجوف اذا تركه وشأنه، الا أن الجرجوف صاح يخاطبه:

ـ اثنني بضربة ثانية

تذكر الولد نصيحة أخته عن حيل الجرجوف وطبيعته.

وأجابه:

ـ لائنا أبي ولا أمي

ـ إخطني

ـ قصرت رجلي

ـ اتفلني

ـ جف ريقي

بقي الجرجوف يتخبط حتى لفظ أنفاسه ومات. فرحت الفتاة وأخوها بموت الجرجوف وتعانقا يهنئان بعضهما، وعادا معا الى قريتهم حاملين معهم ما قدروا على حمله من الكنوز والذخائر التي تركها الجرجوف، وعاشا مع أمهم عيشة هناء وسعادة.

الدجرة

عاشت في قديم الزمان عائلة من العائلات تتكون من رجل وزوجته وطفلاهما عيشة هناء وسعادة لا يكدر صفوها ولا يعكر هناءها شيء والطفلان يملآن جو البيت مرحاً وسروراً، لكن الهناء لا يدوم فقد بدأ صفو حياة هذه الأسرة يتكدر عندما مرضت الأم وأخذ المرض يشتد عليها يوماً بعد يوم حتى أدى الى وفاتها فخيم الحزن على البيت وملأت الحسرة قلب الرجل لوفاة زوجته وبقي يفكر في حياة الطفلين بعدها فقرر أن لا يدخل بيته أو حياته امرأة تحل محل زوجته، وأن يتفرغ لتربيتهم والعناية بهم خوفاً من أن يعاملا عكس ما ألفا واعتادا في عهد أمهم، والفتاة التي تكبر أخاها تساعده على ذلك.

مضت الأيام والشهور والرجل يحاول جهده أن يملأ الفراغ الذي تركه وفاة زوجته في نفس الطفلين لئلا يشعران بذل أو يتم بعدها. وما من أحد في القرية يتردد عليهم أو يهتم بهم، حتى كان ذات يوم عندما اقتحم عليهم عالمهم أرملة من صديقات زوجته أخذت تتردد عليهم ما بين وقت وآخر لتنظيف البيت أو تغسل الملابس، ولا تنسى أن تمسح على رأس الطفلين وتقبلهما عند مجيئها ووقت رواحها.

مع الأيام تطورت علاقتها بالأسرة وتدرجت الى العناية بالطفلين واعداد وجبات الغذاء، وقضاء أكثر الأوقات بينهم.

عمل تصرفها على التخفيف من هموم الرجل وأحزانه يوماً بعد يوم فكان يذهب الى عمله مطمئناً الى وجود من يرعى الأولاد في غيابه فزاد ذلك من ارتباط

الأرملة بهم وغدت تتصرف كما لو كانت ربة البيت.

أخذت مشاعر الرجل نحوها تتقوى غير ملتفت الى نفسيات ابنائه أو شاعر بها، اذ كان همه أن لا يسمع من ينهرهم او يسيء معاملتهم أو يشعرهم باليتم وذلك ما لم تقم به الأرملة فرآها خير من يخلف زوجته المرحومة، ففاتحها في الزواج فلم تمانع فتزوجها لتعيش معهم ولتكون سيدة البيت.

كانت الفتاة التي عاشت مرتابة من الأرملة يوم دخلت البيت مظهرة الاهتمام بهم تتابع تحول مشاعر أبيهم نحوها شيئاً فشيئاً حتى كاد ينساهم وخاصة وقد احتلت مكانة أمها في البيت وفي قلب أبيها، وبقيت تنتظر اليوم الذي ستعاملهم فيه كخالة، الا ان انتظارها لم يدم طويلا، فما أن أصبحت الأرملة سيدة البيت حتى بدأت تقلل من اهتمامها بالأولاد تدريجياً مركزة اهتمامها على الرجل، لتأخذ في التذمر منهم والشكوى من عنادهم، وكلما ازداد تقرباً منها تبدي له تذمرها من انشغاله عنها بأولاده بدلاً من جلوسه معها.

أخذ يستجيب لها ويقلل من اهتمامه بالأولاد، وكلما لبى لها طلباً قدمت له آخر حتى صرف اهتمامه عن الطفلين اللذين بقيا يعيشان بمفردهما، والفتاة تولي عطفها وحنانها على أخيها.

قالت الخالة للرجل ذات يوم:

ــ لا أطيق بقاء أبنائك بيننا.

كان قولها مفاجئاً له اذ لم يتوقع منها أن تقوم بذلك فحاول تجاهل طلبها الا أنها عادت فكررت قولها من جديد، فقال يسألها:

ــ اذا لم يعيشوا بيننا فأين سيعيشون..

ــ في أي مكان، وفي أي بيت..

ابتسم لها وهو لا يعرف ما اذا كانت جادة أو هازلة فقال يخاطبها: انهم أبناؤنا.

ــ أبناؤك من ثانية.. ولماذا أتعب نفسي في تربية أبناء امرأة ثانية.

لم يحاول أن يدخل في جدل أو نقاش معها لئلا يتعكر صفو حياته الزوجية فلاذ بالصمت الا أنها فاجأته بطلبها:
ـ أنت بين أمرين. أما أخرج أنا من البيت أو يخرج أبناؤك. .

رأى في موقفها الاصرار على طرد الأولاد وأنها جادة فيما تقول بتركه والخروج من البيت اذا لم يخرج منه أبناؤه.

وجد نفسه في حيرة أشد من التي وقع فيها بعد وفاة زوجته، لا يعرف كيف يتصرف والطفلان من الصغر بحيث يستحيل أن يعيشا بمفردهما خاصة الولد، فهل يطاوعها ويطردهم من البيت، أم يطردها هي أو يتركها تغادر البيت ليتفرغ لتربيتهما.

بقي يوازن بين عواطفه نحوها وعواطفه نحوهما، فرأى أنه يقوى على فراق الطفلين، ولا يقوى على فراقها، فراح يسألها:
ـ اذا أخرجتهم من البيت الى أين سيتجهون ومن سيرعاهم. . أجابته وهي تغالب فرحها بانتصارها. .
ـ أحملهم الى خارج القرية وأتركهم هناك ليذهبوا الى قرية غيرها.

وهي تشير في كلامها إلى مكان معين اذا تركهم فيه لن يبقوا أحياء لكثرة السباع والوحوش فيه. .

لاذ الرجل بالصمت يفكر في نتائج موافقته على رأيها قبل أن يقول لها:
ـ أعدي لهم ما يتزودون به في غربتهم من كعك ودقيق. قامت الخالة لساعتها تدقق الطعام، وتعد الكعك وتولى هو بنفسه وضع الكعك والدقيق في كيسين منفردين أحكم ربطهما، وذهب الى طفليه يلاطفهما ويسامرهما على غير عادته منذ تزوج الأرملة، فاستغربا ذلك منه وهما لا يعرفان ماذا يقصد.

استمر يلاطفهما ويقص عليهما الحكايات وهما لا يصدقان أن أباهم هو الذي يجلس معهم ويلاطفهم تلك الملاطفة التي أعادتهم الى حياتهم في كنف أبويهم قبل وفاة أمهم، وكم كان سرورهما وحيرتهما عندما قال:
ـ في الصباح سآخذكم معي الى بلاد بعيدة لتتعرفوا عليها. . .

فسأله الولد الذي تعلقت عيناه بعيني أبيه . .

ــ وتقص علينا القصص كل يوم؟

أشاح بوجهه عن ابنه يتقي نظراته المتسائلة وهو يجيبه،

ــ نعم سأقص عليكم كل يوم قصة.

ــ ولن تتركنا وحدنا؟

ــ لن أترككم وحدكم.

وكأنه خشى أن تتغلب عواطفه نحوهم على عواطفه تجاه خالتهم فيتراجع عن قراره في التخلي عنهم فقال:

ــ الوقت متأخر، ناموا لتستيقظوا مبكرين.

فرح الطفلان بعودة أبيهما ليسبغ عليهما ما ألفاه منه من عطف وحنان قبل زواجه من المرأة التي كانت تلاحظ الجو العائلي الذي تاه فيه الرجل وطفليه يتبادلون القصص والحكايات، فاستغلت انشغالهم وعمدت الى الكيسين اللذين أودع فيهما الأب زاد الطفلين من كعك ودقيق وأفرغتهما من محتوياتهما وملأت الاول بالرماد بدلاً من الدقيق وملأت الثاني بغوائط الابقار الجافة (صرادد) وأعادت ربطهما من جديد ووضعتهما في مكانهما.

في الصباح حاول الأب ايقاظ الطفلين ليصحبهما الى خارج القرية فألقاهما جالسين في انتظاره لأن الشوق للرحلة معه طرد النوم من عيونهما.

حمل الأب الكيسين على ظهره والطفلان يسيران أمامه وهو يسرد عليهما أثناء السير القصص والحكايات ويجيب على اسئلتهما حتى وصلوا الى رابية صغيرة تطل على واد فسيح وعلى قمة هذه الرابية جرفاً صغيراً فاستقر رأي الأب أن يجعل الجرف مأوى للطفلين وأن يتركهما هناك، فقال لهما:

ــ ما رأيكم لو قعدنا هنا نرتاح بعض الوقت ونأكل غدانا في هذا الوادي.

لم يعارضه أي منهما، فوضع الكيسين في الجرف وقعد الى جانب الطفلين يحادثهما ويخادعهما ريثما اطمأنا اليه. وآن أوان فراقهما، وعودته للبيت. فقال لهما:

ــ انتظران ريثما أتبول خلف هذه الأكمة.

قال ذلك وقام متجها نحو المكان الذي أشار اليه ليأخذ طريقه عائداً الى البيت.

بقي الولدان ينتظران عودته ومضت الساعة والساعتان دون ان يعود فقال الولد لأخته:

ــ أنا جائع.

استنكرت أخته أن يكون له بطناً خاصة به لا يهتم بعودة أبيه ليأكلوا معا، فقالت تجيبه:

ــ أبونا على وشك العودة وسنأكل معا.

أذعن لها الولد، واستمر يشاركها انتظار أبيهم ليأكلا معه عندما يعود.

انقضت ساعات أخرى وأخذت الشمس تميل نحو الغروب وأبوهم لم يعد. ضاقت الفتاة هي الأخرى وعصر الجوع أمعاءها فقالت لأخيها:

ــ أبونا أبطأ كثيرا في تبوله فهيا نناديه ليسرع بالعودة لعله يسمعنا.

وافقها الولد على رأيها وأخذا يناديان أباهما معا بصوت مشترك:

ــ وأبوينا كم لكي تبول.

سقيت عقمه.. وزيدت عقور

ــ وأبوينا كم لكي تبول.

سقيت عقمه ووادي السحول.

استمرا يناديان في غنائهما، ويكرران النداء حتى أخذت الشمس توشك على المغرب وظلال الجبال العالية تنعكس على الوادي فساورهما الخوف بعد أن يئسا من عودته، وأدركت الفتاة أن أباهما غدر بهما ولم يرافقهما الى ذلك المكان الا ليتخلص منهما. فقالت لأخيها:

ــ لا أظن أنه سيعود بعد هذا الوقت، والأحسن نأكل. قالت ذلك ومدت يدها الى كيس الكعك تقربه منها وفتحته لتخرج منه بعض الاقراص فاذا هي (صرادد) وتناولت الكيس الثاني وفتحته فاذا بداخله رماد، نظرت الى وجه أخيها ونظر هو الى وجهها والتصقا ببعض في صمت ينتظران المجهول.

بينما هما في التصاقهما ذاك وعيونهما تتطلع نحو الأفق شاهدا طائراً كبير الحجم أبيض اللون يرفرف في الهواء ويقترب منهما شيئاً فشيئاً ليهبط بجانبهما على باب الجرف، فذعرا وخافا منه، وازدادا التصاقا ببعض، ولكن سرعان ما ذهب الخوف عنهما وتلاشت وحشتهما عندما سمعا الطير يخاطبهما بصوت ألفاه وأحباه وتعلقا به، يقول لهما:

ــ لا تخافا يا أبنائي فأنا أمكم جئت من الجنة لحراستكم عندما رأيتكما وحيدين في هذا المكان لأن هذا الجرف مأوى للوحوش.

صمتت لحظات لتعاود قولها:

ــ منذ مت وروحي ترفرف عليكم وتتابع حياتكم.

فرح الطفلان بحضورها وأنسا بها وقدمت لهما ما أحضرته معها من طعام، فأخذا يأكلان ويبتسمان لبعض وينظران الى وجهها وهي تراقبهما.

أخذت الفتاة تسرد عليها كل ما جرى لهما بعد موتها، وهي منبسطة لكلامها وعندما غلبهما النعاس ناما وهي تدفئهما بجناحيها وتذود عنهما الوحوش التي تحاول الاقتراب من باب الجرف بمنقارها، وقبل طلوع الشمس أيقظتهما من النوم وودعتهما وهي تقول محذرة:

ــ سأعود اليكما في المساء مع غروب الشمس وأوصيكم أن تكونا حذرين فلا تكلما أحد أو تخبراه انني أجيء لزيارتكما. طمأنتها الفتاة بأنهما سيلتزمان الحذر والصمت.

لم يحس الطفلان بعدها بأي خوف أو غربة بعد ان اطمأنا الى روح أمهما التي تهبط عليهما كل مساء مؤنسة وحارسة، حاملة معها حاجتهما من الطعام، فأخذا يتجولان في جنبات الوادي الى أن يقترب المساء ليعودان الى الجرف انتظارا لهبوطها.

ذات مساء دفع الفضول خالتهما لمعرفة المصير الذي لقياه، فتنكرت وذهبت بمفردها الى الجرف الذي تركهما فيه أبوهما فوجدت الولد قاعد بمفرده عند باب الجرف فدهشت لبقائه حياً واستغربت كيف عاش بدون غذاء وكيف سلم من

الوحوش ظانة أن الفتاة قد لقيت حتفها وبقي يعيش بمفرده، فأظهرت له مشاعر الود وغمرته بقبلاتها وهي تسأله:

ـ تعيش لوحدك يا بني أين أهلك ؟ كيف يتركوك في هذا المكان؟

أجابها الولد يقول:

ـ أعيش هنا مع أختي.

ـ أين هي؟

ـ نزلت الوادي.

ـ أين أبوك وأمك؟

ـ أمنا ماتت، وأبونا تزوج بعدها وخالتي أمرته بطردنا من البيت، فأحضرنا الى هنا وعاد الى البيت.

ـ كيف تعملوا الأكل؟ من يطعمكم؟

ـ روح أمنا تهبط علينا كل مساء تحرسنا وتطعمنا.

ملأ الحنق نفسها وتألمت أشد الألم الا أنها كتمت ذلك وهي تسأله:

ـ أين تسقط روح أمك؟

ـ تسقط هنا.

أجابها بذلك وهو يشير الى المكان الذي تهبط فيه، فبقيت تغافله في الحديث وهي تغرس الابر في مكان هبوط روح أمهما، وانصرفت عائدة الى القرية.

لم يخطر بذهن الولد أن يخبر أخته عندما عادت من الوادي عن المرأة التي زارته وعن ما دار بينهما من حديث، وبقي كعادته معها ينتظر قدوم أمهما التي حلقت كعادتها مع الغروب لتسقط في مكانها المألوف.

ما أن هبطت أمامهما وهما يرقبانها ويتطلعان اليها حتى أنت أنينا موجعا لأنها هبطت على الاشواك والأبر التي زرعتها الخالة فانغرست في جسمها فأنت ذلك الانين وتحركت بصعوبة وهي تنظر اليهما وتساءلت :

ـ من جاء لزيارتكما اليوم؟

نفت الفتاة ان يكون زارهما أحد الا أن الولد قال مؤكداً:
ـ جاءت امرأة لا أعرفها وأختي في الوادي، فبقيت تسألني عن أهلي ومع من أعيش فأجبتها بالصدق. فقالت الأم بصوت حزين متألم:
ـ انها خالتكما جاءت تتأكد من موتكما فلما وجدتكما بخير وعرفت أني أجيء لزيارتكما زرعت لي الاشواك والأبر في المكان الذي أهبط فيه لتنغرس كلها في جسمي.

لامت الفتاة أخاها على صمته وعلى حديثه مع خالته، فلو أخبرها لأخذت حذرها، ولأخرجت الأشواك المزروعة قبل هبوط أمها.

بقيت الأم تئن وتتوجع وهما ينزعان منها الشوك والأبر المغروسة في جسمها وكلما نزعا شوكة أو ابرة تدفق الدم من مكانها حتى انتزعاها كلها الا أنهما اذعنا لأمرها وباتت كعادتها تحرسهما وهي تغالب آلام جراحها وفي الصباح قالت لهما وهي تودعهما:

ـ قد لا أجيئكما ولا تشاهداني بعد اليوم. الاشواك مزقت جسمي وجراحها تؤلمني. ولكن عليكما التطلع نحو الافق المقابل قبل الغروب فاذا رأيتما سحابة بيضاء طلعت منه فانتظرا مجيئي واذا رأيتما سحابة سوداء طلعت منه فلا تنتظراني ولا تبقيا في هذا الجرف الموحش. أتركاه وابحثا عن مكان آخر.

مرت الليلة عليهما طويلة وثقيلة ومثقلة بالهموم والأحزان وهما ينتظران غروب الشمس الذي سيحدد حياتهما وسيقرر مصيرهما، اما واصلا حياتهما في ذلك المكان وروح أمهما المتقمصة روح الطير الابيض اذا تغلبت على جراحها ستبقى ترعاهما، واما تغلبت الجراح عليها وأقعدتها عن المجيء وسارا في الوادي يبحثان عن مستقبلهما.

عند الغروب شاهدا في الأفق سحابة سوداء قاتمة طالعة منه فيئسا من مجيئها، فلم يجدا بدا من مغادرة الجرف والاتجاه نحو الوادي للسير فيه قبل أن يداهمهما الخوف والظلام حتى وصلا الى شجرة كبيرة تسلقاها يحتميان بها من الوحوش ويبيتان ليلهما عليها، وفي الصباح سارا في الوادي الممتد على غير معرفة

بالطريق أو بالمكان الذي سيستقران فيه، وعند منتصف النهار شاهداً بيتاً صغيراً على مقربة من الطريق ففرحا بذلك وعرجا نحوه ليرتاحا بعض الوقت وليطلبا من صاحبه التكرم عليهما بشيء من الطعام. ما أن طرقت الفتاة باب البيت حتى أطلت عليها امرأة عجوز محدودبة الظهر شاحبة الوجه، غائرة العينين الا أنهما ترسلان شعاعا متقدا. ما أن رأتهما حتى فرحت لمرآهما ورحبت بهما وهي تمسك كل واحد منهما وجرتهما وراءها الى الداخل.

كانت العجوز التي فتحت الباب وأدخلتهما البيت هي (الدجرة) والبيت بيتها وتعيش فيه مع طفليها: وهما ولد وفتاة يتساويان في عمريهما مع عمري الطفلين اللذين يجهلان حقيقتهما.

ما أن فتحت الدجرة الباب لترى من الطارق وشاهدتهما حتى منت نفسها وطفليها بوجبة غذائية دسمة فجرتهما الى الداخل وبالغت في اكرامهما مما جعل الفتاة ترتاب في أمرها، فقالت الدجرة متسائلة:

ـ أين بلادكما، وأين أهلكما الذين تركوكما تسيران في هذه الطريق وحدكما؟

لم تجد الفتاة رغم حذرها من المبالغة في الحفاوة أن تروي قصتهما كاملة لتنتزع العطف من قلب الدجرة التي قالت معقبة على كلام الفتاة:

ـ الله لا يرحم أبوكما ولا سامحه، سمع كلام خالتكما وطردكما من البيت لأجلها، اجلسوا هنا عندي، البيت كبير وخير الله واسع. عيشوا مع أبنائي وسأعاملكما مثلهما وسأعتبر ان الله رزقني أربعة أطفال بدلاً من الاثنين.

تظاهرت الفتاة بالفرح لعرض الدجرة وبقيت مرتابة في أعماقها من ترحابها وحذرة من تصرفاتها، تراقب تصرف الدجرة وأعمالها لترى ماذا هي صانعة بهما خاصة وهما لا يدريان أين ينامان اذا لم يناما عندها.

كانت الدجرة تقدم لهما عرضها السخي باقامتهما مع طفليها في بيتها، وهي تتشوق لهبوط الظلام لكي تبدأ في مداعبتهما مع أطفالها ومسامرتهم معا ليناموا مبكرين لكي تتمكن من طحنهم وأكلهم، الا أن الخوف بقي يساور نفس الدجرة

من حدوث التباس أمامها يجعلها لا تميز بين الطفلين العابرين وبين طفليها فتأكل أبناءها بدلاً منهما، خاصة والأربعة ينامون معا. فقالت تحدث نفسها:

ـ لا بد من وضع علامة تميز بينهم قبل أن يناموا لأتعرف على الطفلين في الظلام.

قالت لنفسها ذلك وقامت لساعتها تبحث عن العلامات التي ستضعها على الطفلين لتميزهما عن طفليها. أحضرت اناءين رابت في أحدهما حنا ورابت في الآخر غوائط الابقار (ضفع) وحملتهما الى مكان الاطفال. فقالت تخاطب الفتاة:

ـ كم رق قلبي لكما وتأثرت نفسي لحالتكما ولا شك أن طول الطريق وكثرة المشي سيؤلم أقدامكما لذا عجنت حنا لأطلي بها أقدامكما. الحنا سيمتص حرارتهما وسيجعلكما تنامان مرتاحين.

وأردفت تقول:

ـ بعد ما عجنت لكما الحنا خفت أن يبكي أولادي ويقولون أني لم أعد أحبهم مثلما أحبكما فعجنت لهما حنا في اناء آخر.

أجابتها الفتاة تقول لها:

ـ لا داعي لهذه العناية كلها يا أماه يكفينا انك أطعمتينا وأويتينا، وهذا خير كثير منك.

ـ أستغفر الله ماذا عملت لكما، أنا لم أعمل لكما أي شيء أنتما مثل أبنائي وكم سيكون سروري لو رضيتم البقاء بيننا تعيشان مع أبنائي.

ـ ونحن فرحنا بمشاهدتك وذكرتنا معاملتك الطيبة بالمرحومة أمنا وسنبقى هنا نعيش معك في بيتك ونحن نحس أننا نعيش بجانب أمنا، وفي البيت الذي ولدنا فيه.

فرحت الدجرة بأقوال الفتاة وارتاحت واطمأنت لها وتوهمت أنها خدعت الفتاة وأخيها فقالت تجيبها:

ـ البيت بيتكما وأنا أمكما، وأبنائي اخوانكما.

قالت ذلك وطلبت من الفتاة أن تمد رجليها مع رجلي أخيها، فمد الطفلان رجليهما أمام الدجرة التي أخذت تطليهما بغوائط الابقار (الضفع) وحملت الفتاة وأخاها وأرقدتهما في زاوية البيت، وعادت الى طفليها وطلت أقدامهما بالحنا وحملتهما ليناما وراء الطفلين.

تظاهرت الفتاة بالنوم وطلبت من أخيها ان يتظاهر مثلها وحذرته من النوم. وما أن ذهبت الدجرة لقضاء أعمالها ولتنام بمفردها، حتى قامت الفتاة تنزع الضفع عن قدميها وقدمي أخيها، وتنزع الحنا من أقدام طفلي الدجرة لتطليهما بالضفع وحملتهما الى المكان الذي خصصته الدجرة لتنام هي وأخيها عليه وطلت قدميها وقدمي أخيها بالحنا وناما في المكان الذي خصصته الدجرة لينام عليه طفلاها، وبقيت الفتاة مستيقظة تراقب تصرفات الدجرة.

عندما أيقنت الدجرة أنهما ناما دخلت عليهم تتشمم ريحة (الضفع) للتأكد من فريستيها، وتتشمم ريحة الحنا للتأكد من طفليها، وعادت تتشمم ريحة (الضفع) وهي تضغط بيديها على عنق الطفلين واحد بعد الآخر وحملتهما الى التنور (الموقد) لطحنهما لتتعشى منهما ولتترك الباقي لصباح اليوم التالي عندما يستيقظ طفلاها، بقي الطفلان يرقبان في الظلام حركاتها وخنقها طفليها بخوف وفزع حتى اطمأنا الى انشغالها في المطبخ فتسللا من بيتها هاربين منها قبل أن تكتشف أنها قتلت طفليها وأكلت من لحمهما فتنتقم منهما.

أخذا يستحثان خطاهما في الوادي والخوف يمدهما بطاقة من النشاط كلما تصورا الدجرة تصنع بهما ما صنعت بطفليها.

كانا يسيران ويتلفتان وراءهما لعلها تكون في أثرهما. وما كادت الشمس ترسل أشعتها الى الوادي حتى شاهدا الدجرة تجري وراءهما تحاول اللحاق بهما. فراحا يعدوان وهي تجري وراءهما حتى وصلا الى نهاية الوادي الذي يسده صخرة كبيرة (ضاحة) وقفا أمامها حائرين.

حأولا تسلق الضاحة يغرسان أظافرهما في نتوئها دون جدوى فخشيا أن تلحق بهما الدجرة فتطلعت الفتاة الى أعلا شاهدت راعياً شابا يراقبهما وهو صامت فقالت له:

ـ ساعدنا على الطلوع، الدجرة تجري وراءنا لتأكلنا. وقصت عليه ما جرى لهما مع الدجرة.

فقال لها الراعي:

ـ اذا خلصتكما من الدجرة ستتزوجيني.

ـ نعم، اذا ساعدتنا وخلصتنا منها سأتزوجك.

فرح الراعي بموافقتها على الزواج منه، فرمى لها حبلا طويلا ربطته الى ظهر أخيها وأمرته أن يمسك به بكلتا يديه، فشده الراعي اليه، وأخذ يوالي الشد الى أن وصل الولد اليه، فنزع الحبل منه ورمى به الفتاة، التي لفت الحبل حول نفسها وتمسكت به، وراح الراعي وأخوها يشدان الحبل حتى وصلت اليها فرحة بنجاتها.

وصلت الدجرة الى أسفل الضاحة تبحث عنهما والراعي يشاهدها، وهي تدور حول نفسها تبحث عنهما فقال يسألها:

ـ لماذا تجرين وعمن تبحثين يا عماه؟

رفعت رأسها اليه وأجابته:

ـ أبحث عن طفلين قتلا أطفالي وهربا، هل رأيتهما؟

ـ اذا كان من تعنين فتاة وولد أصغر منها فقد رأيتهما يتسلقان هذه الضاحة وراحا لسبيلهما.

أخذت تتفحص الضاحة بعينيها لترى ما اذا كان بمقدورها تسلقها فرأت استحالة ذلك. فقالت للراعي:

ـ لا أستطيع تسلقها وحدي، ساعدني أنت على ذلك.

ـ حاولي تسلقها بنفسك مثلما عملا، ولو تجمعي الاعشاب والاحطاب والحشائش أسفل الضاحة، حتى ترتفع الى حيث أقدر أن أساعدك على الطلوع. استحسنت الدجرة رأيه، وراحت تجمع الاحطاب والاعشاب وتركمها فوق بعضها أسفل الضاحة حتى جمعت قدراً كبيراً منها، فاستقامت فوقها وهي فرحة بمساعدة الراعي الذي راحت تتطلع اليه.

ألقى لها الراعي بطرف الحبل وأمرها ان تربطه حول نفسها باحكام لئلا تسقط منه، وراح الراعي يشدها الى أعلا حتى ارتفعت عن الاحطاب وتركها معلقة هناك ريثما أشعل النار في الاحطاب والحشائش التي تحتها، فارتفع اللهب من تحت الدجرة وحواليها وهي تصيح وتستغيث وتطلب من الراعي انقاذها.

الا ان الراعي، ترك الحبل يفلت من يده لتسقط الدجرة على النار المشتعلة تحتها وحواليها، وأطلت الفتاة وأخوها من السفح بجانب الراعي يشاهدان الدجرة تحترق، ولتتحرق أسفا على سلامتهما ووقوفهما يشاهدان نهايتها.

استمرت الدجرة ترفع صوتها مستغيثة بالراعي لينقذها من الحريق فيجيبها الراعي والفتاة والولد بالضحك وبقوا يراقبونها حتى أكلتها النار. فانصرفوا عائدين الى بيت الراعي يسوقون الابل التي يرعيها أمامهم.

تزوج الراعي من الفتاة ليكونوا معا أسرة واحدة. الفتاة تعتني بشئون البيت، والولد يساعد الراعي في الرعي.

ورقة الحنا

عاش في قديم الزمان رجل مع ابنته (وريقة الحنا) التي ماتت أمها. تزوج بعدها امرأة مات زوجها بعد أن خلفت منه فتاة اسمها كرام.

كانت وريقة الحنا فتاة رشيقة القوام، مليحة الوجه كريمة النفس، وعلى جانب من الادب واللطافة والرقة في الحديث، وكانت كرام فتاة قصيرة القامة دميمة الوجه، شرهة النفس، خشنة الطباع طائشة العقل رعناء التصرف.

وكان الأب ينظر للفتاتين نظرة متساوية كما لو كانتا ابنتيه، يقسم عطفه وحنانه بينهما وبالتالي دأب على تقسيم العمل بينهما بالتساوي واحدة منهما تتولى رعية الابقار والثانية تقوم بأعمال البيت، فاذا صادف ورعت كرام الابقار اليوم وتولت وريقة الحنا عمل البيت من طبخ وطحن وكنس فعليها أن تخرج للرعي في اليوم التالي وكرام تتولى أعمال البيت.

الا أن أم كرام التي عاشت تأكلها الغيرة من جمال وريقة الحنا وحسن طباعها، دأبت على ارهاقها بالعمل لتخفف عن كرام، وبالتالي دأبت على تفضيل ابنتها في كل شيء وقد اعتادت كل من وريقة الحنا وكرام يوم نوبتهما في رعي الابقار أن تربط فطورها طرف خمارها وتضعه على رأسها وتسوق الابقار أمامها حتى تصل الى المرعى فتشاهد امرأة عجوز جالسة بجانب جدار كوخها تستظل به من الشمس فتعاملها كل منهما معاملة مختلفة عن الاخرى.

كانت وريقة الحنا تشاهد العجوز فتتقدم نحوها وهي تفتح رباط فوطتها

وتقتطع جزءاً منه وتقدمه للعجوز وهي تقول لها:

ـ أطعمي هذا من فطوري يا جدة.

فتناولته العجوز وهي تدعو لها.

ـ زادك فوق عقلك عقل.

وتضيف العجوز قائلة:

ـ القمل أكل رأسي أجلسي فتشي عنهن.

فتجيبها وريقة الحنا معتذرة.

ـ انتظريني ريثما أسوق البقر الى المكان الخصيب في المرعى وسأعود.

فتقول لها العجوز:

ـ لا تتعبي نفسك يا بنيتي ولا شيء، أجلسي هنا وقولي «أرعى وقرب» وسيرتعين لحالهن وعند عودتك ستجديهن قريبات منك.

تقول الفتاة ذلك وتجلس بجانب العجوز التي طأطأت رأسها، ووريقة الحنا تقلب شعرها الاشيب بأصابعها تبحث عن القمل وكلما عثرت على واحدة التقطتها وهي تقول:

ـ هذه مثل كنيمة أمي.

تسمعها العجوز فتدعي لها:

ـ زادك فوق عقلك عقل.

وتستمر وريقة الحنا تفتش عن القمل في رأس العجوز الى أن يحين أوان عودتها فتنادي الابقار تشعرها بأوان الرواح، فتقبل نحوها وقد امتلأت كروشها من الشبع ولا تسير الا بصعوبة، الا أن العجوز تقول لها قبل أن تنصرف عائدة الى البيت مع أبقارها:

ـ اذهبي يا بنيتي الى ذلك المكان وستجدين ثلاث برك مملوءة ماءاً، وستجدين الأولى تغمز لك بأن تغتسلي فيها فلا تطاوعيها، وستجدين الثانية ماءها راكد وهي لا تسير نحوك اغتسلي فيها. . فتتجه وريقة الحنا نحو المكان الذي تشير اليه العجوز وتلاقي البرك امامها فتغمز لها الاولى فتتجنبها وتجد الثانية هادئة وراكدة فتقفز بملابسها تغتسل بمائها وعندما تخرج منها تجد نفسها متعلقة بالذهب

والجواهر، والياقوت التي التصق بجسمها ولا تسير الا بصعوبة فتواصل سيرها عائدة نحو البيت والابقار تسير امامها ببطء حتى تقترب من البيت فتنادي أباها:

ــ يا أباه يا أباه.

يطل الرجل وزوجته لسماعها فيناديها مستفسرا عن طلبها فتقول له:

ــ لاقني بالجمل والجمال والمشتري والحمال.

لم يفهم أبوها قولها في بادىء الأمر والتفت الى زوجته يستفسرها عن طلباتها فتجيبه:

ــ تقول لك لاقني بالمقص والشريم، والمودمة والصميل.

الا أن الرجل يعاود الاصغاء الى نداء وريقة الحنا فيجد انها تقول له:

ــ لاقني بالجمل والجمال والمشتري والحمال.

فيذهب باحثاً عن من سيشتري ومن سيحمل ما تحمله وريقة الحنا في عودتها من المرعى ويقف مشاهداً للأبقار وقد امتلأت بطونها من الشبع وثقل سيرها.

أما كرام فقد اعتادت على تجنب العجوز حال وصولها المرعى، الا أن العجوز تناديها:

ــ اعطيني يا كرام من فطورك.

تسمعها كرام وتجيبها صارخة ومحتجة:

كم هو فطوري؟ يا الله يكفيني، وأنت تريدين منه لأموت نفسي جوعا.

تسمعها العجوز فتدعو عليها:

ــ زادك فوق جنانك جنان.

وتعاود حديثها مع كرام:

ــ القمل أكل رأسي ساعديني في البحث عنها.

تلتفت اليها كرام وتجيبها:

ــ أنا جئت أرعى الأبقار أو جئت أبحث عن القمل الذي يأكل راسك.

تستمر العجوز في الحاحها ورجائها حتى توافق كرام على تصفية شعر العجوز من القمل فتقول لها العجوز:

ـ لا تخافي على أبقارك قولي لها «جوع وباعد» وسوقيها نحو المرعى.

فتقول كرام ذلك وتجلس الى جانب العجوز التي تطأطأ لها رأسها، وكرام تفتش عن القمل بين شعرها الأشيب وكلما عثرت على قملة صاحت:

ـ الله ما أكبرها أنها بحجم الحية.

ـ الله ما أكبرها انها بطول الثعبان.

ـ الله ما أكبرها كأنها عقرب.

والعجوز تسمعها وترد عليها قائلة:

ـ زادك فوق جنانك جنان.

وتستمر كرام تفتش عن القمل لتصيح كلما عثرت على واحدة منها حتى يحين أوان عودتها فتذهب تبحث عن الابقار الضائعة من مكان الى آخر وتجمعها وبطونها خاوية لم تذق شيئا، الا أن العجوز تقول لكرام قبل أن تنصرف عائدة الى البيت مع أبقارها:

ـ اذهبي الى خلف تلك الاكمة وستجدين ثلاث برك ماء، الاولى ستشير اليك أن تغتسلي فيها، فعندما تشاهدين اشارتها اقفزي الى وسطها. . تمثل كرام لمشورتها وتتجه نحو برك الماء، وما أن تشاهد الاولى تشير لها حتى تقفز الى وسطها وتغطس فيها وعندما تخرج منها تجد نفسها مثقلة بالحيات والعقارب والثعابين الملتصقة بجسمها، ولا تسير منها الا بصعوبة فتواصل سيرها البطيء عائدة نحو البيت والابقار تسير أمامها حتى تقترب من البيت فتنادي أباها:

ـ يا أباه، يا أباه.

يطل الرجل وزوجته لسماعها فيناديها مستفسرا عن طلبها فتقول له:

ـ لاقني بالمقص والشريم والمودمة والصميل.

يلتفت الرجل الى زوجته يستفسرها عن طلبات ابنتها فتجيبه:

ـ تقول لك لاقني بالجمل والجمال والمشتري والحمال.

الا أن الرجل يعاود الاصغاء الى نداء كرام فيجدها تقول له:

ــ لاقني بالمقص والشريم والمودمة والصميل، فيلبي الرجل طلبها ويخرج لملاقاتها وعندما يلاقيها يأخذ في قص وجز الثعابين الممتدة فوق حواجبها، والحيات والعقارب الملتصقة بباقي جسمها، ويأخذ المودمة[1] والصميل ويضرب بها الافاعي حتى يقتلها، بعدها يقف مشاهداً للابقار الجائعة، وقد التصقت بطونها بظهورها، فيحار في أمره ولا يجد تفسيراً لذلك.

ذات يوم حدث عرس في القرية حضره ابن السلطان فأخذت الغيرة أم كرام من حضور وريقة الحنا لما تتمتع به من جمال، حفلة العرس تلك لئلا تقع أعين ابن السلطان عليها فيعجب بجمالها فيتزوجها، فقررت ان تمنعها من الذهاب معهن حتى لا يطغى جمالها على كرام فاختلقت لها عملاً يشغلها وتعجز عن تنفيذه.

عمدت الى مختلف اصناف حبوب الطعام، وغرفت من الذرة، والبر، والدخن، والشعير، والدجر، غرفت اقداراً متساوية منها ووضعتها معها لوريقة الحنا وهي تقول لها:

ــ نقي هذا الطعام واخرجي كل صنف لوحده، واطحنيه واحتفظي بدقيق كل صنف لوحده، واكنسي البيت من أسفلها الى أعلاها.

فقالت لها وريقة الحنا تترجاها:

الله يسترك يا خالة، اسمحي لي بالمجيء معكن حفلة العرس، كل بنات القرية سيحضرنها.

أجابتها خالتها بجفاف:

ــ لديك أعمال كثيرة، اذا فرغت منها الحقينا:

ــ الله يعافيك يا خالة اسمحي لي أجي معكن وبعدها سأقوم بكل الأعمال.

---

(١) المودمة قطعة خشب بحجم المرقة الكبير يستخدمها المزارعون لتفتيت التراب المتحجر بعد الحرث و(الصميل) عصا رأسها غليظ وبحجم المطرقة الصغيرة.

أجابتها خالتها بغضب:
ــ قومي بعملك أولاً.

قالت لها ذلك وخرجت من البيت وابنتها كرام تسير وراءها مرتدية أحسن ملابسها ومتزينة بأجمل حليها لتستلفت بها نظر ابن السلطان.

استمرت وريقة الحنا في وقفتها تنظر لهما بحسرة وندم على عدم السماح لها بحضور العرس التي تهيأت له كل صبايا القرية.

بينما هي كذلك ظهرت لها العجوز التي تقيم في المرعى وكانت تنقي لها شعرها من القمل فقالت لها:

ــ لماذا لم تذهبي الى حفلة العرس، كل الصبايا والنساء سيحضرنه.

رفعت وريقة الحنا رأسها نحو العجوز، وأجابتها وهي تشير نحو الطعام:

ــ خالتي خلطت كل هذه الاصناف من الطعام وأمرتني باخراج كل صنف لوحده، وأدقق كل صنف وحده وأمرتني بكنس البيت من أسفلها الى أعلاها.

تبسمت العجوز لكلام وريقة الحنا وقالت لها:

ــ لا تخافي من أي شيء، أنا سأعمل كل هذا في لحظات وأنت قومي واغتسلي وتزيني وروحي العرس.

قالت لوريقة الحنا ذلك وأخرجت لها ملابس من الحرير الفاخر وعقوداً من الذهب والماس، وقدمت لها حذاءاً جميلاً ليس له مثيل، وراحت تساعدها على ارتداء الملابس والتزين بالحلى، وتمشيط شعرها، وعندما انتهت قالت لها:

ــ اذهبي رأساً الى بيت العرس وارقصي من ساعتك ولا تلتفتي لأحد، وعندما تقنعي وتشبع نفسك من الرقص عودي سريعا الى البيت.

خرجت وريقة الحنا فرحة مسرورة، وراحت تجري وهي ممسكة بيديها أطراف ثوبها لئلا يتسخ من التراب قبل أن تصل الى الحفل، واتجهت رأسا الى مكان الرقص فراحت تزيح الواقفات بالباب بيديها ودخلت الى وسط المرقص الذي يرقص فيه الفتيان والفتيات، وراحت ترقص، وترقص والجميع يشاهدونها

ويتعجبون من جمالها ومن الملابس والحلى الذي عليها، والجميع لا يعرف من هي ولا من أين أتت، فقالت كرام لأمها:

ـ هذه البنت تشبه وريقة الحنا، ولولا انا تركناها في البيت لقلت انها هي.

فقالت أمها:

ـ ايش بايندي وريقة الحنا ومعها عمل أسبوع في البيت ومن أين ستأتي بهذه الملابس، يعلم الله ابنة أي سلطان هي.

وكان ابن السلطان يتابع رقص وريقة الحنا وقد فتنه جمالها وأعجب برقصها، وعندما تعبت من الرقص جرت نحو الباب فرأت خالتها وكرام واقفات بجانبه، فداست حذائها قدم خالتها وحاولت ان تضغط عليها بحذائها فسقط الحذاء منها فولت هاربة دون أن تلتقط الحذاء أو تلتفت ورائها، وعندما وصلت الى البيت خلعت ملابسها الجديدة وارتدت أسمالها البالية ونكشت شعرها وذرت على وجهها وساعديها بعض الدقيق ووجدت الطعام قد دقق ووضع كل صنف في اناء لوحده، وقعدت تنتظر عودة كرام وأمها لتسألهما عن العرس وكيف كان، ومن التي حضرت من الفتيات ومن التي غابت.

أقبلت كرام وأمها وهما شاردات الذهن من جمال تلك الفتاة وتصرفاتها، فاستقبلتهما وريقة الحنا والمكنسة بيدها كما لو كانت لم تغادر البيت ولم تكمل عملها بعد، فقالت تسألهما:

ـ كيف كانت الحفلة، ومن تغيب عنها من الفتيات.

أجابتها خالتها:

ـ لو كنت جئت وشاهدتي ما حدث ما باتصدقي عيونك.

تساءلت وريقة الحنا بلهفة وشوق:

ـ ماذا حدث؟ ماذا حدث؟

قبل أن تجيبها كرام أجابتها أمها:

ـ واحدة بنت دخلت ترقص ضيعت كل الفتيات بحسنها وجمالها وبرقصها وملابسها وحليها، حتى الذين كانوا يرقصوا توقفوا عن الرقص وراحوا يتابعونها

وهي ترقص وابن السلطان ولا رفع عينه عنها يتابعها بنظراته وهي لا تلتفت اليه ولا الى واحد غيره، وعندما قنعت من الرقص خرجت تجري وداستني بحذائها فسقط منها ولم تأخذه، وأخذه ابن السلطان وهو يقول انه سيبحث عن صاحبته بنفسه وسيتزوجها.

تظاهرت وريقة الحنا بالحزن وتنهدت وهي تقول:
ــ ليتني جئت معكن لأتفرج عليها.
ضحكت خالتها من أمنيتها وأجابتها ساخرة:
ــ ايش الذي بايوصلك لعندها، نحن جلسنا في الباب ومن دخل أو خرج دهفنا الى الجدار، والفتاة كادت تكسر لي رجلي.

في اليوم التالي خرج ابن السلطان يدور على بيوت القرية بيتا بيتاً يبحث عن الفتاة صاحبة الحذاء، ويقيسه بنفسه على كل فتاة، وكلما قاسه على واحدة يجده أكبر أو أصغر من مقاسها، حتى وصل الى بيت وريقة الحنا فخافت خالتها أن يكون الحذاء على مقاسها فأمرتها أن تختفي بالسطح داخل (الموفي) التنور وأبرزت كرام لابن السلطان ليقيس عليها الحذاء فلما قاسه وجده صغيرا فتساءل:
ــ أين أختها؟
أجابته متلعثمة:
ــ ليس لها أخت.

لم يقتنع ابن السلطان بكلامها وراح يفتش البيت غرفة بعد غرفة وطلع الى السطح يبحث عنها ، فلما شعرت وريقة الحنا انه اقترب من الموفي أخرجت قدمها من عين الموفي الى السطح فشاهده ابن السلطان فجلس يقيس عليه الحذاء فجاءت على مقاسه ففرح بذلك وأخرج وريقة الحنا من الموفي وأخذها الى أبيها وقرر الزواج منها فوافق أبوها على ذلك وحددوا يوم الزفاف .

إغتاظت أم كرام من اختيار ابن السلطان لوريقة الحنا زوجة له فقررت أن تزف له كرام بدلاً منها فتهيأوا للزفاف وزين ابن السلطان قصره لاستقبال وريقة الحنا، وتهيأت ام كرام لزفاف ابنتها فألبستها أحسن الملابس التي لديها وزينتها

بأجمل الحلي، وكلفت وريقة الحنا بطبخ اللحم واعداد الطعام للضيوف فقامت بذلك، ولما حان أوان زفة كرام الى بيت ابن السلطان همست العجوز الجنية لوريقة الحنا أن تذهب الى كرام وتوصف لها أنواع وأصناف الطبخ وتطلب منها أن تطلع الى المطبخ لتأكل حاجتها ووريقة الحنا ستجلس في مكانها ريثما تعود.

ذهبت وريقة الحنا الى كرام بائسة ضاحكة وقالت لها:

ـ لو رأيت يا أختي على طبيخ معنا، وعلى لحم وسط (البرام) (والقصاوص)[٢] ستأكلي أصابعك، وكم سأبقى حزينة لو رحت من البيت قبل أن تتذوقيه وتأكلي منه.

سال لعاب كرام وهفت نفسها للاكل، لكنها قاعدة على أهبة الزفاف و (المردو)[٣] ، يغطي رأسها ومن المحتمل في أي لحظة يأتي (المراوحة)[٤] ليزفوها الى بيت ابن السلطان فقالت لوريقة الحنا :

ـ و(المردو) كيف أعمله؟

ابتسمت لها وريقة الحنا وهي تقول لها:

ـ اذهبي الى المطبخ وأكلي ما تشتهيه نفسك وأنا سأجلس بدلاً عنك تحت (المردو) ريثما تعودين. . خلعت كرام (المردو) وألقته جانبا وجرت فرحة نحو المطبخ تبحث عن أواني اللحم وتفتش داخلها وتمد بيدها من اناء الى آخر وهي تخرج أجزاء مما تحويه لتتذوقه.

أما وريقة الحنا فقد حضرت لها العجوز الجنية وساعدتها على ارتداء أفخر الملابس والتزين بأجمل الحلي التي أحضرتها لها ، وجلست تحت المردو بدلاً من كرام .

---

(٢) البرام جمع برمة، والقصاوص جمع قصيص، وهي اواني فخارية مخصصة للطبيخ، والبرمة اناء صغير، والقصيص اناء كبير.

(٣) (المردو) هو الغطاء الذي يضع على رأس العروس ويغطي وجهها ويسمى في المدن الطرحة.

(٤) (المراوحة) الناس الموفدين من قبل العريس الى بيت العروس، لزفتها من بيتها الى بيت العريس.

أقبل (المراوحة) وأزفت لحظات خروج العروس من بيتها فاتجهت أم كرام نحو (المردو) لتودع ابنتها وأزاحت طرفه لتشاهد وجهها، فذعرت عندما طالعها وجه وريقة الحنا بدلاً من وجه كرام فسألتها حانقة:

ـ أين كرام؟

أجابتها وريقة الحنا وهي كاسفة الوجه:
ـ قالت أنها جائعة وطلعت المطبخ وطلبت مني أجلس مكانها ريثما تعود.

راحت الأم تنادي ابنتها حانقة:
ـ أين أنت يا كرام اسرعي بالمجيء.

سمعتها كرام وهي تلتهم الأكل من هذا الاصيص وذلك وأجابتها:
ـ عادني بين القصاوص والبرام.

جرت أمها نحو المطبخ لتجدها قد أدخلت رأسها داخل قصيص كبير (حنب) بداخله وكلما رفعت القصيص بيديها لتخرج رأسها منه استكب المرق على ملابسها فعمدت أمها الى كسر القصيـص حتى بان رأس كرام من الاجزاء الباقية حول عنقها، وراحت تتطلع نحو ملابسها وزينتها فوجدتها قد اتسخت وتشوهت، وليس لديها من الوقت لتعيد اصلاح ذلك خاصة وقد دقت الطبول منذرة بخروج العروسة فسكتت على مضض وهي تشاهد وريقة الحنا تزف الى ابن السلطان بدلاً من ابنتها كرام فجلست تبكي حظها وهي تنشر بالمنشار الطوق الذي بقي حول عنق كرام من أطراف وبقايا القصيص.

عندما وصلت وريقة الحنا الى بيت ابن السلطان استقبلها بنفسه ورافقها الى داخل القصر لتعيش معه في سعادة وهناء أيام وشهور نسى خلالها زوجته الاولى التي دفعتها الغيرة من وريقة الحنا بالتآمر مع العجوز الماشطة بسحر وريقة الحنا وتحويلها الى طائر، فوافقت العجوز الماشطة على القيام بذلك، فذهبت ذات يوم كعادتها الى وريقة الحنا لتمشط لها شعرها وغافلتها اثناء المشط وغرست في مؤخرة رأسها سبع شوك طلح مسحورة، وسبع ابر مسحورة تحولت بعدها وريقة

الحنا، الى (جولبة)[٥] طارت الى خارج البيت.

راح السلطان يبحث عنها ويفتش بيت ابيها فلم يعثر لها على اثر، واتهم أباها باختطافها فأمر بحبسه وربطه الى مربط الخيل حتى يحضرها.

في صبيحة اليوم التالي ذهب بتول ابن السلطان كعادته يسوق الاثوار الى الوادي، وراح يحرث الارض، واذا بجولبة تسقط فوق شجرة قريبة منه وراحت تناديه:

ـ يا بتول، يا بتولين.
كيف حال الحريوين[٦]؟

أجابها البتول بقوله:

ـ مستريحين مريحين.
لكن أبيك بين أرجل الخيلين.

سمعت الجولبة ذلك من البتول وراحت تبكي وتستمر في البكاء حتى هطل المطر من كثرة بكائها فتوقف البتول عن الحراثة وساق الاثوار أمامه وانصرف عائداً بها الى القرية فسأله ابن السطان عن سبب عودته فأجابه البتول:

ـ المطر منعني من الحراثة.

صمت ابن السلطان وذهب لحاله، وفي اليوم الثاني ساق البتول الاثوار كعادته ليحرث الأرض وما أن شرع في ذلك حتى سقطت الجولبة فوق الشجرة التي سقطت عليها في اليوم الاول، وراحت تنادي البتول بما نادته بالامس، فأجابها بدوره باجابته السابقة، فراحت الجولبة تبكي وتسترسل في بكائها حتى هطل المطر من كثرة بكائها، فتوقف البتول عن الحراثة وساق الاثوار أمامه

---

(٥) الجولبة نوعا من القماري والحمام المطوق، والفرق هو أن طوق القمري اعلا عنقه وطوق الجولبة تحت عنقها.

(٦) حريو معناها عريس. حريوه معناها عروس، حريوين معناها عروسين.

وانصرف عائدا الى البيت، فلاقاه ابن السلطان وسأله عن سبب عودته فأجابه البتول:

ــ المطر منعني من الحراثة.

حنق ابن السلطان من كلامه وقال له معاتبا:

ــ كيف يهطل المطر في الوادي كل اليوم ولا يهطل هنا؟

أخذ البتول يقص عليه ما يجري له مع الجولبة وهطول المطر بعد ذلك فتعجب إبن السلطان وقال للبتول:

سنذهب معا صباح الغد لأسمع كلامها وأتعرف على قصتها.

في اليوم التالي ذهبا معا وجلس ابن السلطان على مقربة من البتول الذي شرع في حراثة الأرض، واذا بالجولبة تسقط في مكانها المألوف على الشجرة من البتول:

ــ يا بتول، يا بتولين، كيف حال الحريوين؟

فأجابها البتول:

ــ مستريحين، مريحين، لكن أبيك بين أرجل الخيلين.

سمعت ذلك منه وراحت تبكي وتسترسل في البكاء حتى هطل المطر من كثرة بكائها، فأراد البتول أن يتوقف عن الحراثة ويعود الى البيت فمنعه ابن السلطان وأمره بمواصلة الحراثة، واتجه نحو صخرة قريبة قعد تحتها ريثما يتوقف المطر.

ما هي الا فترة بسيطة حتى طارت الجولبة من فوق الشجرة وسقطت بالقرب من الصخرة، وراحت تمشي حتى وصلت الى مكان ابن السلطان فمسكها بيده وراح يتحسسها باليد الأخرى، واذا بأصابعه تعثر على رؤوس الشوك والابر المغروسة في مؤخرة رأسها، فراح ينزعها واحدة بعد أخرى حتى أخرجها كلها واذا بها ترجع الى صورتها الاولى وريقة الحنا تقف أمامه وجهاً لوجه، ففرح بها وعادا الى البيت وهي تقص له ما صنعته الماشطة العجوز فطردها من البيت وطلق زوجته الاولى، وأطلق سراح أب وريقة الحنا وأكرمه، وعاش مع وريقة الحنا في سعادة وهناء.

حكم الفراسة

يعود تاريخ هذه الاسطورة او الحكاية الى بداية عهد الامام يحيى او مستهل حكمه حتى ذلك التاريخ بل والى ما بعده. كانت القبائل تحل مشاكلها بطرقها الخاصة ووفق ما يقتضيه العرف القبلي السائد ووفقاً لفراسة الشيخ او تقديره للقضية بما في ذلك القضايا الشائكة المتعلقة بالقتل. فكلمة الشيخ نافذة وحكمه لا يطعن في سلامته أو عدالته أحد.

ولقد كان من شروط اتفاقية (دعان) بين الامام يحيى والاتراك التي تسلم بمقتضاها الحكم بعدهم، أن يعين هو قضاة الشرع في اليمن شمالا بما في ذلك المناطق التي يحكمها الاتراك خاصة القسم الاسفل، وفعلا عين الحكام من قبله في كل قضاء وناحية.

ولما كانت القبائل تحل مشاكلها بطرقها الخاصة فقد رحبت بالقضاة الذين عينهم الامام دون أن تلجأ اليهم لحل قضاياها أو تستعين بهم لذلك فيحلونها بطرقهم الخاصة ثم يحملونها الى الحكام الشرعيين ليبصموا عليها ولتأخذ الطابع الرسمي أو الشرعي.

وهذه الاسطورة أو الحكاية التي يقول رواتها بأنها حدثت في بني جبر من خولان تدور حول أيهما أجدى حكم الشرع أو حكم الفراسة.

كان للشيخ أحمد الجبري ولد أبدى رغبته في السفر الى صنعاء لتلقي دراسته فيها، فلم يقف الاب في طريقه ولم يحل دون رغبته شجعه على السفر

وفي صنعاء التحق باحدى المدارس وبقي عدة سنوات يدرس كتب الفقه والشريعة على أيدي رجال الدين فيها.

ومن خلال قراءته لهذه الكتب تولدت في نفسه الرغبة في أن يعود الى قبيلته رجل دين يعمل على حل خلافات الناس والاصلاح بينهم وفق ما تأمر به كتب الشريعة، بدلاً من تركهم يحلون قضاياهم ومنازعاتهم بمقتضى العرف وفراسة الشيخ وحدسه وتخمينه.

قوت هذه الرغبة عزيمته فكب على كتب الفقه والشريعة وأخذ يجلس الى بعض القضاة ليتعلم على أيديهم حل الخصومات والخلافات وفقا للشريعة.

وبعد عدة سنوات عاد الى قبيلته وكله امل بأنه سيملأ فراغاً في القرية وان أباه سيرحب به وسيوكل اليه حل القضايا والخصومات والخلاف بين الأهالي وفقا لما قرأه في كتب الشريعة وتعلمه على أيدي رجالها.

لكن أباه تجاهل رغبته وبقي يحلّ خلافات الناس بالأسلوب الذي اعتادوا والفوه فقال يعاتب والده.

ـ كنت أعتقد أن لجوءكم لهذا الاسلوب البدائي في حل الخلافات يعود لعدم وجود رجال متخصصين في الشريعة، ولكن يبدو انكم تفضلون هذا الاسلوب البدائي على حكم الشريعة.

فقال الاب:

ـ نحن أدرى بمشاكلنا وبطرق حلها.

ـ ان في هذا تجاهلا للشريعة.

ـ نحن لا نتجاهل الشريعة ولكننا نحل قضايانا بطرقنا الخاصة.

ـ ولكنها طرق همجية، ولا بد أن تكون الشريعة مرجعكم.

ـ التجارب علمتنا كيف نحل قضايانا ونعالج مشاكلنا.

ـ تجازفون في الأحكام وتظلمون كثيرين من الابرياء، بسبب المجازفة والاسلوب الهمجي.

ـ نحن أدرى بمصالحنا وأرحم بنفوسنا.

أخذ الابن يكيل النصائح لأبيه ويحاوره بغية اقناعه، لكن الاب ظل مصراً على رأيه، وأخيراً ضاق به وبنصائحه ذرعاً فقال له:

ـ دعنا وشأننا ندبر حياتنا كما نريد ونحل مشاكلنا بطرقنا الخاصة فاذا كنت ترغب في البقاء والعيش معنا وفقا لذلك فأهلاً وسهلا، واذا بقيت مصراً على رأيك في تغيير عاداتنا فمع السلامة.

يئس الولد من حمل أبيه وقبيلته على الالتجاء الى الشريعة لحل مشاكلهم وخلافاتهم، ولم يطق البقاء بينهم خاضعا للعرف القبلي وهو الذي درس الشريعة وتخصص فيها ليتفرغ لحل خلافات الأهالي وفض منازعاتهم ولم يجد من يأبه له أو يشاطره الرأي ويتجاوب معه، ووجد آراءه لا محل لها بينهم وهو غير مستعد للتخلي عنها.

ظل في حيرة من أمره وأخذت نفسه تنازعه هل يهجر أباه وقبيلته بسبب تمسكه برأيه ويعود الى صنعاء للبقاء فيها أم يتخلى عن موقفه ويعيش مع أهله وذويه، وفي عشيرته وفقا لما يقتضيه العرف والعادة.

ولم يجد بدا من ترك أبيه وأهله والعودة الى صنعاء للبقاء فيها، فودع أباه وأخذ يشق طريقه سيراً الى صنعاء بمفرده ونفسه تنازعه الرغبة وتشده الى القرية. كانت الطريق طويلة وهو وحيد في سفره مثلما هو غريب في أفكاره في ذلك المحيط وداهمه الظلام في الطريق وهو لا يزال في حدود القبيلة التي تخضع لنفوذ والده، فلم يجد بدا من دخول مسجد القرية للصلاة والمبيت فيه حتى الصباح لمواصلة السير، وبعد صلاة العشاء جلس بالقرب من نافذة المسجد الصغير يحدق في الظلام وعلى مقربة منه احدى بيوت القرية يلتصق بها كوخ صغير يستخدم لحفظ الابقار والاحطاب والحشائش.

كان في جلسته تلك يفكر في حالته وخلافه مع أبيه وسخريتهم من أفكاره وعدم تقديرهم للشريعة مثله وتفضيلهم أساليبهم وأعرافهم عليها.

قطع عليه تفكيره ذاك صوت صفير متقطع من جانب الكوخ فأمعن النظر في الظلام فاذا برجل ملتصق بالجدار يرسل ذلك الصفير في حذر خوفاً من أن

يسمعه أو يشاهده أحد وتلا ذلك الصفير ظهور ضوء من أحد نوافذ البيت للحظة واختفى، فدخل الرجل الكوخ وبعدها نزلت امرأة من البيت ودخلت بعده.

لقد كان الصفير والضوء اشارات متبادلة بينهما للقاء في ذلك المكان وقبل ان ينعما باجتماعهما سمعا صوت طفل يبكي من البيت فقالت:

ـ كنت أعتقد أنه قد نام وأخشى أن تستيقظ ضرتي على بكائه، انتظر سأعود حالا.

وذهبت لاسكات الطفل فسكت بوجودها ولم ينم وعادت الى عشيقها وقبل ان تستقر بجانبه ارتفع بكاء الطفل من جديد فعادت لاسكاته، وتكرر بكاؤه وتكررت محاولتها حتى ضاقت الأم من ذلك وتبرم العاشق، وقالت وهي تطيب من خاطر عشيقها.

ـ سيسكت هذه المرة ولن يبكي ابدا، وذهبت لاسكاته وعادت الى الكوخ وقعدت مع عشيقها وقتا طويلا. كل هذا وابن الشيخ جالس بجانب النافذة يشاهد ما يحدث ويسمع حديثهما وضحكهما، وفزع من الحديث الذي دار بينهما حول سكوت الطفل.

ـ ماذا صنعت بالولد ليسكت هذا السكوت؟

ـ تخلصت منه.

ـ كيف؟

ـ قتلته!!

ـ ألا تخشين القصاص؟

ـ لن يخطر بذهن أحد انني قتلته وسأتهم ضرتي بأن الحسد دفعها لقتله!

أخذ ابن الشيخ يفكر في هذه الجريمة التي يعرف مرتكبيها ودوافعها وستذهب ضحيتها امرأة بريئة، ولكنه صمت وكتم معرفته لملابسات الحادث ليرى كيف سيعالج أبوه هذه القضية وممن سيأخذ القصاص وهل سيعرف من هي القاتلة.

عادت الأم الى غرفتها لترفع صوتها بالبكاء والعويل ولتوقظ أهل القرية النائمين، يا مقتولاه! يا ولداه! يا بني!

تجمع أهل القرية على صراخها مستفسرين ما الخبر ومن هوالمقتول؟

فقالت وهي لا تزال ترفع صوتها بالعويل:

كنت أتفقد البقر فعدت لأجد ابني مقتولاً ولا أحد في البيت سوى ضرتي ولن يقتله أحد غيرها.

واستمرت في البكاء وأهل القرية يتجمعون وأصابع الاتهام تشير الى الزوجة الثانية والجميع يندد بها.

ارسلوا من يبلغ بالحادثة الى الشيخ أحمد ويطلب منه الحضور للقرية للنظر في هذه الجريمة التي لا تقبل تأجيل الحكم.

وأقبل الشيخ مع مجموعة من مرافقيه الى القرية وقام الاهالي بما يقتضيه الموقف وجرت عليه العادة من ذبائح ومد الموائد للجميع، والشيخ متمهل في موقفه وغير متلهف مثل الآخرين في اصدار حكمه أو الادانة.

فقال أحدهم بعد الانتهاء من تناول الغذاء:

ـ الأمر الذي اجتمعنا من أجله متى ستبت فيه يا شيخ أحمد؟

ـ لا داعي للتسرع وبعد المقيل سيكون خير.

وبعد المقيل أمر الشيخ أن توضع كل من الأم والخالة في غرفة منفردة لا يدخل اليها أحد أو يتصل بهما أحد، وطلب غرفة ثالثة له، وقعد بمفرده في الغرفة ونادى باحضار الضرة المتهمة بالقتل وأغلق الباب فقال يخاطبها ويتفرس في ملامح وجهها:

ـ لست أول من قتل ولن تكوني الأخير والشيطان يوقع الكثير في حبائله فاذا اعترفت سأخفف الحكم عليك وكلنا يخطىء.

ـ فقالت ما ذنب الطفل حتى أقتله وليس بيني وبين أمه أية خصومة.

ـ لكن الجميع يتهمونك والحكم سيصدر ضدك والاعتراف يخفف من قسوة الحكم.

ـ لا يهمني الجميع اذا كان الله يعرف انني بريئة.

ـ لن يفكر أحد انك بريئة من قتل الطفل، الا اذا أثبت ذلك بطريقة واحدة.

ـ تساءلت متلهفة:

ـ ما هي؟

ـ تقفين وسط الجميع وتنزعين ثيابك قطعة قطعة وتبقين عارية أمامهم وتقولين انني بريئة من قتل الطفل مثل براءتي من الملابس هذه.

ـ فذهلت المرأة وقالت:

ـ هذا لا يمكن!

ـ اذا أثبتي براءتك؟

ـ اذا لم تكن هناك طريقة أخرى فأنا قاتلة.

ـ اذا لم تصنعي ذلك سيصدر الحكم عليك.

ـ اعتبروني قاتلة ولن أصنع ذلك.

نادى الشيخ مساعديه ليعيداها الى غرفتها ويحضرا أم الطفل اليه فدخلت تبكي وترسل دموعها وجلست أمامه فقال لها:

ـ ضرتك منكرة انها قتلت الطفل ولا يدل شيء على انها قاتلة فاعترفي بالحقيقة ونخفف الحكم عليك.

ـ انت تتهمني بقتل ابني؟ من يقتل ابنه؟ انها هي القاتلة دفعها الحسد الى قتله لأنه ليس لديها أولاد.

ـ لقد اتضحت لنا براءتها وما عليك الا اثبات براءتك لنتأكد انها هي القاتلة لأنكما وحدكما في البيت.

ـ وكيف أثبت براءتي؟

ـ احضري أمام الجميع عندما أناديك وانزعي ملابسك قطعة قطعة وقفي عارية أمامهم وقولي انني بريئة من قتل طفلي مثل براءتي من ملابسي هذه وان ضرتي هي القاتلة.

ـ في سبيل ابني سأعمل أكثر من هذا، والبريء لا يخاف العقوبة.

ـ قد قلت في نفسي ان مقتل ابنك سيؤثر عليك ولن تترددي في اثبات براءتك في أي موقف.

وأمرها بالعودة الى غرفتها وعاد هو الى الاجتماع، وتطلع الجميع اليه للاستماع الى رأيه، في حين كان ابنه متخفيا بين الحاضرين ليرى من سيدين أبوه في هذه القضية التي لا يعرف عن ملابساتها شيئا، فقال الشيخ:

ـ احضروا الضرة.

فحضرت المرأة وأمرها بالوقوف وسط المجتمعين وقال لها:

ـ ما زلت عند رأيك.

ـ نعم قتلت الطفل.

ـ فكري في الأمر

ـ الأمر لا يحتاج الى التفكير وأنا معترفة بالجريمة فالتفت الى الحاضرين وقال:

ـ ارجعوها الى غرفتها واحضروا ام الطفل المقتول.

وحضرت وهي ترسل دموعها ووقفت وسط الحشد المحدق بها وقال لها الشيخ:

ـ لا زلت عند رأيك؟

ـ نعم.

ـ ابدأي.

وشرعت في فتح أزرار قميصها لخلعه والوقوف عارية وسط الحشد فقال لها وهو يشير بيده نحوها:

ـ يكفي. يكفي.

فكفت عن مواصلة خلع ملابسها وأمرها بالعودة الى غرفتها المنفردة.

شاهد الحاضرون ذلك وهم لا يدرون ما علاقته بالحادث والقاتلة معترفة وبقوا منتظرين سماع الحكم ونوع العقوبة التي سيفرضها. فأدار عينيه في الحاضرين وقال:

ـ الأم هي القاتلة، قتلت طفلها واتهمت ضرتها بقتله. ذهل الحاضرون للاتهام الذي أصدره الشيخ ولم يدروا على أي أساس بناه، وكيف يتهم الأم والضرة معترفة. وكان ابنه أكثر استغراباً منهم، فهو وحده يعرف الحقيقة فكيف لم يحاول أحد أن يسأل الشيخ كيف بنى إتهامه ولكن ابنه دخل في خلاف معه بعد احتكامهم الى الشريعة في حل هذه القضايا وتركهم ليعود الى صنعا وشهد أحداث القضية أراد ان يعرف الاسلوب الذي اتبعه أبوه لمعرفة القاتلة، فخرج من مخبئه بين الحاضرين ووقف في مقدمتهم مواجهاً لوالده وقال له:

نعم ان الام هي التي قتلت طفلها واتهمت ضرتها، وقد جرت الحادثة أمامي وتابعتها من نافذة المسجد، وسرد لهم ما حدث بين الرجل والمرأة، واختفيت لأرى كيف ستبني حكمك على هذه القضية التي اتهم الجميع الضرة بها فأخبرني كيف عرفت الحقيقة بعد أن أخبرتك بما حدث فروى لهم الشيخ الحديث الذي دار بينه وبين كل من المرأتين على حدة وطلبه من كل منهما أن تثبت براءتها بالوقوف عارية أمام الجميع، وفضلت الضرة أن تعدم من أن تقف عارية واعترفت بقتل الطفل وهي بريئة، بينما الأم أبدت استعدادها لذلك وشرعت في نزع ملابسها، وأردف ـ ان المرأة التي لديها استعداد ان تقف عارية لا تتورع عن قتل طفلها.

اقتنع الابن بفراسة أبيه وسلامة حكمه وتقديره وأقره على أسلوبه في حكم القضايا وعدل عن رأيه في السفر الى صنعاء وعاد معه الى القرية متخلياً عن رأيه ومذعناً لآراء والده.

تقع قرية «الجنات» على بعد بضعة أميال من الراهدة وبمحاذاة أحد روافد وادي ورزان وتلتصق بأسفل جبل الصلو وتكاد « قلعة المنصورة » تظلها بجناحها المنشور الذي بسطته عندما كانت تهم أن تطير لولا ان الدندكي أمرها بالتوقف عندما صاح بها :

ـ يا قلعة المنصور أوقفي

فوقفت وبقي جناحها منشوراً يظلل قرية الجنات وماجاورها من قرى.

كانت القرية تعيش حياتها اليومية المعتادة تهتم بزراعة أراضيها ورعي مواشيها عندما فاجأتها أوامر الدندكي ابن أيوب طالبا من أهاليها أخشاباً وكلفهم بنقلها الى القلعة.

حار الأهالي في أمرهم ولم يدروا ماذا يصنعون، ولا كيف يتصرفون. فهذه أول مرة تطلب منهم الدولة مثل هذه الطلبات التي يصعب تنفيذها.

حقا أن القرية خضراء وغنية بالاشجار والثمار واسمها «الجنات» يدل على حقيقتها. وهم مستعدون لاعطاء الحكومة حاجتها من الاخشاب. ولكن من سيتولى نقلها الى القلعة المطلة عليهم والتي ترتفع ارتفاعا شاهقا، وليس هناك من طرق مسلوكة تؤدي اليها.

ان تنفيذ أمر الدندكي ذاك مستحيل وعصيانه أكثر استحالة.

اجتمع الأهالي للتشاور فيما بينهم، وهم يتبادلون نظرات الحيرة

والاستفسار عما يمكن صنعه. وتشعبت الآراء وتناقضت الاقتراحات. فقال أحدهم:

ــ المثل يقول (طيع الدولة ولا تنصرها) وعلينا تلبية طلب الدندكي ونقل الاخشاب الى القلعة.

وقال آخر:

ــ اذا لبينا طلب الدندكي جعلها عادة وستتكرر طلباته وستكثر وسنسمع منه كل يوم طلباً جديدا.

ما رأيك أن نعصي أمره ونعرض أنفسنا وقريتنا للخراب؟

فقال أكبرهم سنا وقد تفتق خياله عن حل للمشكلة:

ــ كلكم محقين في آرائكم. فاذا لبينا طلب الدندكي ظفر بنا وسيكون له كل يوم طلب جديد. أما اذا عصينا أمره أحرق القرية وعلقنا الى «دقم الخباش» ولكن عندي حلاً وسطاً يجعلنا غير ملزمين بتلبية طلب الدندكي ولا يقر عصياناً لأمره.

التفت الجميع نحو الشيخ المسن متلهفين لسماع الحل الذي لا يغضب الدندكي ولا يلبي طلبه.

وأخذ الشيخ يجيل نظراته الزائغة في الحاضرين وكأنه يريد التعرف على وقع كلماته فيهم، وقال:

ــ الحل اننا (نتهابل) ونلبي طلبه بصورة تدل على هبالتنا وجهلنا لكل شيء.

فتساءل الجميع مستفسرين وقد زادت حيرتهم:

ــ وكيف ذلك؟

أجابهم والابتسامة تعلو وجهه:

ــ ننتقي أحسن الاخشاب في القرية ونقطعها قطعا صغيرة لا يزيد طول القطعة منها على ذراع ثم نحملها في سلال وننقلها اليه حتى القلعة.

وتساءل الجميع:
ـ ولكن كيف ينطلي عليه ذلك ؟
ـ نفذوا كل ما أشير به عليكم وأنا أضمن النجاح.

فابتسم الجميع وقالوا:
ـ شريطة ان تتولى أنت قيادتنا.

فابتسم بدوره وهو يقول:
ـ لا عليكم. أنا أتولى الأمر.

توجه كل من في القرية لانتقاء الاخشاب وتقطيعها وتوجه وفد منهم الى قلعة المنصور تلبية لطلب الدندكي وهم يحملون السلال على ظهورهم العارية والاخشاب مقطعة قطعا صغيرة داخلها ولا يبدو غير أطرافها من فتحات السلال.

أخذوا يحثون خطاهم بصمت والدهشة ملء وجوههم والاستغراب من كل شيء تقع عليه أعينهم، كأنهم خرجوا من سراديب مظلمة أو وفدوا من دنيا غير الدنيا.

استقبلهم كل من في المنصورة بدهشة واستغراب لتصرفهم ذلك وأخذوا يتجمعون حواليهم يسألونهم عما في السلال. وكانوا يجيبونهم بجواب واحد لا يتغير:
ـ هذه هي الاخشاب طلب الدندكي.

فيضج الناس بالضحك منهم ويتبادلون الاشاعات حول تصرفهم هذا الى ان وصل خبرهم مسامع الدندكي الذي لم يصدق ذلك وخرج بنفسه لمشاهدة أهالي (الجنات) لاستطلاع خبرهم، فاستقبلوه صفاً واحداً يتقدمهم الشيخ المسن وكل واحد منهم يضع سلته أمامه والاخشاب بداخلها والناس مجتمعين حولهم يتعجبون من تصرفهم ويتطلعون الى ما سيصنعه الدندكي معهم.

ومر الدندكي عليهم واحدا واحدا وعيناه تتفحصان السلال تارة وتتفحص وجوههم تارة أخرى عله يرى عليها امارات المكر او الخداع الى أن تجاوز نهاية

الصف فاستدار راجعاً وقال متسائلا: ما الذي أحضرتم لنا في السلال؟

فتقدم الشيخ المسن نحوه وهو يجيب: الاخشاب التي طلبتها منا.

قال ذلك بكل هدوء ووقار ودون ان يلاحظ الانسان في كلامه علامة المكر والخداع.

نظر الدندكي اليه وأخذ يتفحصه عله يشعر بشيء من الارتباك أو الاضطراب يفضح أمر هؤلاء.

ولكن الشيخ كان صامداً أمامه يبادله نفس النظرات وكأنه ينتظر كلمات الشكر والثناء منه على تلبية طلبه وتوفير حاجته من الاخشاب.. فعاود الدندكي سؤاله:

هذه هي الاخشاب التي طلبناها؟.. قال ذلك وتناول احداها وأخذ يقلبها ويتأملها.

فأجابه الشيخ: نعم وقد اخترناها من خيرة ما لدينا من أخشاب.

فقال الدندكي: ولكنها قصيرة.

فأجابه الشيخ: (سعادتك توصلها).

حار الدندكي في أمره، ولم يدر ما الذي حمل أهالي الجنات على تقطيع الأخشاب بتلك الطريقة التي تفقدها الافادة ولماذا يحملون مشاق السفر لنقلها اليه.. وعندما حاول افهامهم بأنها قصيرة لا يمكن استعمالها أجابوه ببراءة وهدوء: سعادتك ستواصلها وستزيد من طولها، وفي ذلك منتهى الثناء والمديح له، ولكن هل كان ذلك بداهة منهم أم خديعة ومكراً؟

حدث هذا والناس مجتمعين صامتين يسمعون الى ما يدور بين الدندكي وبين أهالي الجنات من نقاش وحوار دون أن ينبس أحدهم بكلمة وكأنهم يشاطرون الدندكي حيرته في أمرهم.

وقرر الدندكي في نفسه القيام بتجربة جديدة ومحاولة أخرى لمعرفة حقيقتهم، فأمر الخدم بافراد جناح خاص لأهالي الجنات يقيمون فيه وبتوفير كل

شيء لهم ليتسنى له مراقبتهم والتعرف على حقيقتهم.

ولما حان أوان الغداء أمر الخدم بتجهيزه لهم ووضع الف دينار من الذهب بين الحلبة على أساس انها (نواة الحمر) فاذا كانوا جاهلين وبدائيين حقا فانهم لن يمسوا الذهب ولن يعرفوه، واذا كانوا على العكس من ذلك فسوف تنقص الدنانير ولو واحدا اذ لا بد وأن يطمع بعضهم أو أحدهم فيها أو في بعضها.

وقدمت لهم جفان العصيد وأواني الحلبة بجانبها والدنانير بداخلها وكلف الخدم بمراقبتهم واحصاء حركاتهم، وأثناء الأكل اكتشفوا الدنانير بين الحلبة ففطنوا للخديعة التي دبرها لهم ليوقعهم فيها فتبادلوا النظرات فيما بينهم وهم يبتسمون.

أخذوا يلوكون العصيدة ويمضغونها ويخطون الحلبة من الدنانير ثم يخرجونها من أفواههم ليرموها الى الارض حول الجفان وهم يتمتمون بصوت مسموع:

ــ كثرت الحماميض بين الحلبة.

كانوا يرددون هذه الكلمة بين حين وآخر ليسمعهم الخدم الذين يراقبونهم عن قرب. وبعد انتهاء الأكل جمعوا فضلات الأكل مع الدنانير في اناء الغسال ولم يأخذوا أيا منها والخدم يراقبونهم من طرف خفي.

حضر الدندكي الى جانب الخدم ليتأكد بنفسه من أن الدنانير لم تنقص شيئا فعدها الخدم أمامه فاذا هي كاملة.

وازدادت حيرته في أمرهم وقال في نفسه:

ــ الى هذا الحد هم من السخف والبلاهة؟

واتجه نحوهم ليستفسر عن حالهم وما اذا كان الغداء ناسبهم ثم ما رأيهم في الدنانير وماذا حسبوها، ولماذا لم يأخذ أي منهم بعضها؟

وبادرهم بسؤاله:

ــ كيف الغداء أعجبتكم العصيدة؟

فأجابه الشيخ:

ــ عصيد ما عصيد وحلبة ما حلبة لكن كثروا الحماميض (اشارة الى

استعمال كثير من الحمر بينها بسبب وجود الدنانير) . . وصمت الدندكي ولم يدر ماذا يقول لهم، وقال يخاطب نفسه متمتما:

ـ ان البلاهة لا يمكن ان تصل بالمرء الى هذا الحد الذي لا يميز فيه بين الاشياء ولا يفرق بين نواة الحمر والدنانير ولا يمكن ان تكون البلاهة بصورة جماعية ولا بد ان يكون في الأمر سر لا بد من اكتشافه قبل السماح لهم بالعودة الى قريتهم.

خطرت للدندكي فكرة أخرى أراد ان يمتحن بها أهل الجنات ويتعرف على حقيقتهم ويتأكد من صحة تصرفهم وكانوا بدورهم فطنين لنواياه.

كان الوقت قبيل الغروب والضباب يلف كل شيء ولا يستبين المرء من خلاله شيئاً عندما قال لهم الدندكي :

ـ لنخرج نمشي معا لنعرفكم على القلعة.

فخرجوا معا يتجولون في أنحاء القلعة التي يحيط بها الفضاء من كل جوانبها ولا يربطها بالمدينة الا طريق او سلم مستطيل يمتد من أسفلها، والغيوم تمر من تحتهم وحواليهم متدافعة متتابعة.

حاولوا النظر الى قريتهم الكائنة في القاع المنبسط عند أسفل الجبل، فلم يشاهدوا الا الظلام ولم تستطع عيونهم ان تخترق الطبقة العليا من الغيوم الكثيفة التي تتجمع في القمم وتجعل المرء لا يستبين أمامه الا بصعوبة.

وأبدوا البلاهة والجهل وتساءلوا عن هذا الشيء الذي يشبه الدخان ويمر بمواكب متلاحقة حواليهم وتحتهم ويغمر كل شيء ولم يشاهدوا مثله في القرية.

فابتسم وهو يجيب:

ـ هذه جمال ربي.

فقال الشيخ:

ـ انها غير موجودة في القرية.

ـ لكنها موجودة عندنا.

وأردف:
ـ ما رأيكم تركبون عليها وهي ستحملكم الى القرية وتوفرون على أنفسكم مشقة السير الطويل.

فشعروا أنهم وقعوا في مأزق لا يمكنهم الخروج منه وأن أمرهم لا شك سينفضح اذا رفضوا الركوب على الضباب ولا بد أن يفرض عليهم أقسى العقوبات.

وصوبوا نظراتهم نحو الشيخ وكأنهم يقولون له:

ـ لقد أوصلتنا حيلك وحكمك الى طريق مسدود. وهذه هي نتيجة مشورتك، وكأنهم يطلبون منه مخرجاً من هذا المأزق الذي وقعوا فيه وقد عودهم الشيخ على اخراجهم من كل مأزق.

ولكن حيرتهم لم تطل فقد فاجأهم الشيخ بقوله وكأنه يعظهم ويودعهم:
ـ يا أولاد: (بشيبه ولا بكل الشباب).

قال ذلك ومرق من بينهم وقفز في الفضاء ليركب على متن الضباب الى القرية وهو يقول:
ـ (يا جمال ربي التقي)

وفزع الدندكي من تصرفهم وتيقن من حقيقة بلاهتهم وجهلهم وخاف ان يلحق الآخرون به ومنعهم من القفز وراء الشيخ خاصة وقد انتظموا في طابور موهمينه انهم موشكون على القفز بعده أولا بأول.

وأطل الدندكي من مشارف السفح فشاهد الشيخ ممسكا بكلتا يديه على فروع شجرة التألب الكائنة عرض القلعة وامتد ساقها وفروعها نحو السفح.

وكان الشيخ قد وقع عليها وتمسك بها بكلتا يديه في انتظار من ينقذه.

فعمل الدندكي ورفاق الشيخ على انقاذه بواسطة الحبال، فلما أطل وجهه

عليهم وهو ممسك بالحبال قال لهم وهو يبتسم:

ـ (ما هو الا عود التألب اما الرب قد كان سيب)

فأيقن الدندكي من بلاهتهم وجهلهم فأكرمهم وأعادهم الى قريتهم فرحين، ولم يعد يطلب منهم شيئا.

جرت العادة في الافراح والولائم ان من يأتي لوح كتف الذبيحة من نصيبه في الغداء او العشاء ينظر الى داخله فيشاهد فيه من يحب أن يشاهده أو يفهم منه بطريقته الخاصة ما يجري في بيته أو بيت غيره ممن يريد معرفة ما يجري لديهم على مسافات بعيدة .

وذات مرة صادف مرور (دوشان) أو (شاحذ) كما يسمى في الجنوب في بلدة لا تبعد كثيرا عن بلدة فيها وليمة فحضر مع من حضر الى مائدة العشاء فجاء اللوح من نصيبه، فلم يجد بداً من التطرق فيه كما هي العادة ورغب في أن يرى بيته وما يجري فيها وكيف حال زوجته التي تركها بمفردها وليس الى جانبها أحد.

وكم كانت مفاجأته عندما طالع زوجته نائمة على الفراش مع غريب في بيته .

فانزعج وثارت ثائرته وقام لتوه من المائدة ليعود مسرعا الى بيته وينتقم لشرفه ويثأر لعرضه.

ودخل الى بيته دون أن يتكلم أو يتساءل أو يوقظ زوجته ، بل استل جنبيته وأخذ يطعن بها الشخص النائم على الفراش والذي كان موجوداً فعلا بجانب زوجته دون أن يعرف من هو .

فاستيقظت زوجته عندما سمعت الحركة. وعندما عرفت ما حدث صاحت في وجهه:

ـ أهلكتنا يا رجل. النائم الذي قتلته هو جابر إبن الشيخ جاء يؤانسني في وحدتي وانت مسافر، فماذا نقول للشيخ، وما هو عذرنا في قتله وما هو مصيرنا؟

وكان ابن الشيخ في الثامنة من عمره وهو وحيد أمه وأبيه. انتشر الخبر في القبيلة بأن الدوشان قتل جابر إبن الشيخ ومعترف بجريمته. وساد القبيلة حنق وسخط وتضارب في وجهات النظر حول ما ينبغي على الشيخ ان يفعله.. فالدوشان من أقل الفئات شأنا وقيمة في المجتمع ولا يرضى به ان يكون في مستوى الفرد العادي فكيف بعلية القوم وشيخ القبيلة ذاته وطالما المقتول هو ابن الشيخ؟ ولكن ما نوع العقوبة التي يجب فرضها عليه خاصة وقد جن جنون الأم لمقتل ولدها وارتفع عويلها ونحيبها عليه، لأنه كان وحيدها.

فقال أحدهم محاولا ارضاء نفسية الأم وتخفيف حنقها:

ـ لا بد من القصاص وقتل الدوشان. النفس بالنفس.

فاعترض آخر قائلا:

ـ كيف يحدث هذا، وكيف نقتل دوشانا لثأر أو لغير ثأر فاذا قبل الشيخ بهذا فهو عار وعيب ليس عليه وحده ولكن على القبيلة كلها.

وساد الجو صمت ووجوم وحار القوم فيما يصنعون. فالأم لا تهدأ لها ثائرة والدوشان وزوجته قاعدين على مقربة منهم يسمعون النقاش الذي يدور بينهم وهم مستسلمون لأي مصير أو أي عقوبة تفرض.

وأخيراً تكلم الشيخ فقال:

ـ ان وجود الدوشان في البلد بعد الفعلة التي فعلها سيبقى يذكرنا بعامر وبقتله له وسيزيد من حزن أمه وبكائها عليه، ولا يمكن ان نتركه يعيش في القرية. والرأي هو نفي الدوشان من البلد على أن لا يعود اليها أبداً.

استحسن القوم رأي الشيخ ووافقوا عليه، وان كان بعضهم لا يزال في قرارة نفسه يحبذ قتل الدوشان.

شد الدوشان رحاله وحمل متاعه مع زوجته مفارقا بلده ومسقط رأسه باحثاً له عن أرض يتخذ منها وطناً جديداً يستقر فيها.

وحط رحاله على مشارف قرية بعيدة عن قريته الاولى متخذاً منها وطناً جديداً وبقي الحنين يعاوده الى وطنه ومسقط رأسه.

ومضت شهور ومضى العام الأول والثاني على الحادث فلا الدوشان طاب مقامه في وطنه الجديد ولا خف حنينه لوطنه القديم ، ولا زوجة الشيخ سلت ابنها القتيل أو نسيت مصرعه ، بل كان يزداد بكاؤها كلما مر يوم على قتل طفلها واستمرت الحادثة على أفواه الناس يلوكونها ويبدون فيها ويعيدون .

وعاود الذين حبذوا قتل الدوشان في بادىء الأمر رأيهم ومشورتهم على الشيخ من جديد واستمروا يلحون عليه قائلين:

ـ ان زوجتك لن تسلو الا متى رأت الدوشان قد قتل ورأت دمه على الارض، ولا بد من البحث عن الدوشان في أي أرض كان وقتله. فلم يجد الشيخ في نهاية الأمر بداً من الاذعان لرأيهم.

فاستصحب معه مجموعة من رجاله وراح بنفسه يبحث عن الدوشان ويتسقط أخباره من قرية الى أخرى حتى وصلوا الى القرية التي يقيم بها دون أن يشعروه بوجودهم . وفي المساء اتجهوا نحوه بينما كان قاعداً على باب كوخه يتسامر مع زوجته وهو يسمع الرعد ويشاهد البرق من جهة بلدته القديمة فهاجه الحنين وشاقه اليها وتمنى لو كان يقيم فيها ، رفع صوته بالغناء يتمنى لها المطر والسقيا ويدعو لشيخها الذي أمنه وعفا عنه بالرغم من قتله لابنه فقال يغني :

يا رب يا قاهر تجيب ماطر
تسقي بلاد ابن عامر ذي أمن الجار
وادي على الجار عامر

سمع الشيخ غناء الدوشان ودعاءه له ولبلاده فالتفت الى أصحابه وقال:

يدعو لي من مسافة بعيدة ويدعو لبلادي بالمطر وأنا جئت لقتله، هذا لا يمكن.

فقال له أصحابه:

وزوجتك ماذا ستقول لا بد من قتله حتى تسلو مقتل جابر.

فصمت الشيخ ولم يجب ولكنه عاد مع أصحابه الى مطرحهم في انتظار الصباح ليرى ماذا سيصنع، واستمروا في حثه على قتله وعدم التراجع فيما أتى من أجله.

وفي الصباح أرسلوا من يشعر الدوشان ان الشيخ سيمر عليه فقال الدوشان:

ـ يا مرحبا بالرجال ولو كانت علي.

قال كذلك وقد أحس أن الشيخ لم يأت الا لقتله بعد أن حرضوه على قتله ولكنه قام نحوه بما تمليه عليه شهامته ومروءته فاستعد لاستقباله كما لو كان ضيفاً فلما سمع الشيخ الترحيب به وبرجاله عرف شهامة الدوشان وقال:

ـ كيف أقتله وهو يرحب بي هذا الترحيب ويدعو لي وهو على أطراف الدنيا والله لا كانت ولن يكون الدوشان أكثر شهامة مني.

ولم يجد أصحابه بدأ من الاذعان لمشيئته واصطحب الدوشان معه وعاد به الى القرية ليعيش معهم فيها.

جليد أبو حمار

عاشت في قديم الزمان اسرة مكونة من رجل وزوجته وابنهما الوحيد وذات يوم نوى الرجل السفر من القرية فاتصل بالمنجمين ليطلعوه على ما سيجري لأسرته اثناء غيابه عن القرية فقالوا له:

ــ ستلد زوجتك بنتا تتسبب في قتل أخيها.

انزعج الرجل من أقوالهم، خاصة وهو يعرف ان زوجته حامل، وخاف على ابنه الوحيد من المصير الذي ينتظره على يد الجنين النامي في بطن أمه فيتمنى لو أنها تضع ما في بطنها ليتخلص بنفسه من المولود لو كانت بنتا، الا أن سفره حان قبل ذلك، فقال يوصي ابنه:

ــ لقد سمعت ما قاله المنجمون وأنا على سفر سيدوم عدة سنوات فاذا وضعت أمك بنتاً اقتلها في الحال ولا تتركها تعيش لأنها ستجلب لأسرتنا الخراب، واياك ان تهمل وصيتي.

كان الرجل يتكلم والابن يصغي له وعندما انتهى أجابه يقول:

ــ اني أسمع ما تقول وسأعمل بوصيتك ولن أخالفها.

فسافر الرجل مطمئنا بأن ابنه سيعمل بوصيته. . عندما وضعت المرأة كان المولود طفلة جميلة أحبها الولد وتعلق بها وتردد في قتلها، الا أن وصية أبيه بقيت ترن في أذنه باستمرار فبقي ممزق المشاعر بين تعلقه بها وبين أوامر أبيه، وقرر في الآخر الابقاء عليها وهو يقول لنفسه:

ـ سأتركها تعيش، وعندما يعود سيشاهدها، وربما يغير رأيه، واذا أصر على قتلها سيكون لي موقف آخر.

أخذت الطفلة تنمو وتكبر وهو يزداد تعلقا بها وهي تزداد تعلقا به، ولما آن أوان عودة أبيها كانت الفتاة تفهم وتدرك كل ما يدور حواليها فخاف أخوها من أبيه فتفاهم مع جارهم بأن يحتفظ بالفتاة على أنها ابنته ويسلمه ابنه ليقدمه لأبيه على أنه أخوه فوافق الجار على ذلك ريثما يألف الرجل ابنته. فلما وصل الأب قدم له الولد على أنه ابنه وتعرف على الفتاة على انها بنت جاره، الا ان ذلك التستر لم يدم فقد عرف الرجل الحقيقة فعاتب ابنه على تجاهله وصيته وصاح به يأمره:
ـ اقتلها أو ادفنها حية ولا تحاول ان تريني وجهها ثانية، ولا تريني وجهك اذا لم تنفذ أمري.

لم يجد الولد بدا من اطاعة أمر والده، الا أنه رأى دفن أخته حية أهون على نفسه من قتلها فأخذ المعول وركب حصانه وأردف أخته وراه وسار الى مكان بعيد عن القرية فتوقف ونزل من فوق الحصان وأخذ المعول وراح يضرب به الأرض يحفر حفرة ليدفن أخته فيها.

عندما رأته أخته يحفر الأرض أخذت تساعده في نقل التراب وجمع الأحجار، فبقي يشاهدها وهو صامت الى أن رأى أن الحفرة عل مقاسها:

ـ انزلي الى الحفرة لأرى ما اذا كانت على مقاسك لم تمانع الفتاة، فقفزت الى داخلها، وبدأ هو يسقفها بما جمعه وأعده من أحجار وهي تضحك وتواصل حديثها معه، تبدي له ملاحظاتها وترشده ببراءة الى الثقوب والفتحات التي لم يسدها قائلة له:

ـ الضوء الكثير يدخل من هذا الثقب.

فيعمل على سده ليسمع صوتها من جديد تشير الى ثقب آخر:

ـ من هذا الثقب أرى الشمس.

فيعمل على سده، وتستمر هي في ارشاده الى الشقوق والثقوب التي يدخل

منها الضوء ويتجدد الهواء فيسدها واحداً بعد آخر ونفسه تنازعه الاشفاق عليها، والكف عن دفنها خاصة وهي تجهل ما يراد بها والا لما أخذت تدله على الثقوب.

وقف حائرا أمام آخر ثقب هل يسده لينهي حياتها ويعود الى ابيه، أم يخرجها ويتولى رعايتها بعيدا عن أبيه وما هو مقدر للانسان لا بد منه.

تغلبت عاطفته نحوها، فأسرع يزيح التراب والاحجار ليشاهدها تضحك، فأخرجها لينفض عنها التراب ويبادلها الضحك وهو يغالب دموعه، فأردفها خلفه على ظهر حصانه وراح يسير على غير هدى.

عثر في طريقه على نمرين صغيرين لوحدهما في الوادي فأخذهما معه ليشاطرانه الحياة التي سيعيشها وحيداً مع اخته، واستمر يواصل سيره باحثاً عن مكان قصي مهجور يستقر فيه، فوجد ضالته على ضفة جدول ماء فحط رحاله عنده وشرع في بناء كوخ صغير يأويان فيه، واسطبل يأوي فيه الحصان والنمرين.

عندما استقر به المقام في ذلك المكان راح يستيقظ مع كل صباح ليسرج حصانه ويعتلي ظهرها مستصحباً معه النمرين الصغيرين، ويخرج للصيد والقنص والتدريب على فنون القتال، ولا يعود الا بعد منتصف النهار موصياً أخته بأن لا تفتح الباب لأي طارق وان لا تتعرف على أي غريب، ولا تنزل الجدول لتغتسل أو تغسل الملابس، أو تنقل حاجتها من الماء اثناء غيابه.

جعل الولد من نفسه، ومن الحصان والنمرين شيئاً واحدا، كل واحد يكمل الآخر، يتحركون بصورة جماعية كلما طلب منهم التحرك وراه، وقد أطلق على حصانه اسم «حصان بن هادي»، وعلى النمر الاول اسم «قلبي» وعلى النمر الثاني اسم «فؤادي» ودربها على الوقوف بجانب الحصان لينطلقوا معه عندما يناديهم بقوله:

ــ قلبي، فؤادي، حصان ابن هادي، دقي الوادي.

ما أن يسمعوا ذلك منه حتى تعدو الخيل والنمرين معها يقاتلان ويصطادان معه.

أخذت الحياة تسير به في مكانه ذاك يقضي أوقاته في الصيد، وتدريب النمرين على طاعته والقتال معه والفتاة قاعدة في البيت تعد الطعام وتعتني بالحصان والنمرين عند عودتهم.

كان من الممكن أن تستمر حياتهم على هذه الوتيرة لو لم يكن السلطان الذي يقيم على ضفة الجدول على بعد مسافة منهم معتاداً على النزول الى الجدول ليسقي حصانه بنفسه ، فذات يوم امتنع الحصان عن الشرب ، وكلما أدنى رأسه الى الماء رفعه قبل أن يشرب ولما تكرر ذلك منه مراراً أثار عجب السلطان فانحنى على الجدول يمعن النظر فيه ، فشاهد شعرة مستطيلة ملتفة بين الماء خاف منها الفرس وامتنع عن الشرب فتناول الشعرة بيده وأخذ يسقيها ولفها برفق واحتفظ بها ، وراح يعرضها على جلسائه يسألهم عن من تكون صاحبتها ، وهل هي من الأنس أو من الجن . تحير الجميع من طولها فقال لهم السلطان :

ـ الذي سيأتيني بأخت هذه الشعرة سأعطيه ما يطلب.

فقال أحد جلسائه:

ـ لن يحقق طلبك الا العجوز الكاهنة.

فأمر السلطان باستدعائها فلما حضرت مجلسه عرض عليها الشعرة وهو يقول لها:

ـ اذا أحضرت لي أخت هذه الشعرة سأعطيك كل الذي تطلبين.

فقالت له العجوز:

ـ واذا أحضرت لك صاحبتها؟

ـ سأضاعف لك العطاء.

طوت العجوز الشعرة بطرف خمارها، وأخذت عصاها وسارت في محاذاة الجدول تبحث عن ضالتها حتى وصلت الى الكوخ الذي تقيم فيه الفتاة مع أخيها فدقت الباب لتستغرب الفتاة من ذلك لأنها لم تعتد ان يطرق عليها الباب أحداً فتساءلت:

ـ من يطرق الباب؟

ـ عجوز عابرة سبيل تطلب لقمة غذاء.

أجابتها الفتاة من وراء الباب:

ـ الله كريم، ليس لدينا ما نتصدق به.

لم تجبها العجوز، ولم تعاود طلب الاحسان مرة أخرى وانما تظاهرت بالتعب والمرض والجوع، تشكو حالها لنفسها وتدعو الله على نفسها بقولها:

ـ يا الله عزني ولا هذه الهيانة، أحوجتنا لما في أيد الناس، وذليتنا آخر أعمارنا.

كانت العجوز تشكو حالها وتدعي على نفسها والفتاة التي تستمع لها من وراء الباب، ترق عواطفها وتلين نحو العجوز كلما أمعنت العجوز في الدعاء على نفسها حتى ذابت عواطف الفتاة ففتحت الباب لتقدم لها كسرة خبز وجرعة ماء تناولتهما العجوز شاكرة وجلست تقضم الخبز وتعلكه بأسنانها وتشرب من الماء وتارة تبلل الخبز بالماء قبل أن تأكله والفتاة ترقبها بصمت.

ما أن انتهت العجوز من الأكل، حتى راحت تتظاهر بالشبع والانتعاش ورفعت يديها نحو السماء تدعو للفتاة:

ـ الله يشبع جوعك، ويكسي عريك، ويرزقك بابن الحلال ويمتعك بشبابك.

تفتحت أسارير الفتاة وعلاها الفرح لسماعها دعاء العجوز الذي وجدت فيه عوضاً عن مخالفتها أوامر أخيها لأنها أنقذت نفساً مشرفة على الهلاك.

همت الفتاة بالدخول وإغلاق الباب، إلا أن العجوز التي كانت تتملا في جمال الفتاة ومحاسنها سألتها:

ـ مع من تعيشين في هذا المكان الموحش، وما كلفك الله لذلك؟

كان لسؤالها وقعاً خاصاً في نفس الفتاة، فأجابتها تقول:

أعيش هنا مع أخي، ولا أعرف لماذا نحن هنا وحدنا.

تنهدت العجوز وهي تقول:

ـ من يعيش في هذا المكان المقفر لوحده الا من كان مجنون.

وأردفت متسائلة؟
ـ أين أخوك الآن؟
ـ خرج في الصباح كعادته للصيد وسيعود بعد منتصف النهار.

عاودت العجوز تنهدها وهي تقول:
ـ حرام تعيشين وحيدة في هذا المكان الموحش يذبل شبابك ويشوه جمالك.

استأنست الفتاة بحديث العجوز وألفت مجالستها وان بقيت خائفة من أخيها، الا ان العجوز لاحظت ذلك اردفت تقول:
ـ انت فتاة شابة وجميلة لكنك مهملة نفسك لا تغتسلين ولا تعتنين بزينتك.
ـ انا أغتسل يوميا عندما يعود أخي، ولا أصدق بوجود أي أوساخ على جسمي.
ـ إذا فأنت لا تعرفين كيف تتزينين ولا كيف تمشطين شعرك لتحافظي على جمالك ورونق شبابك.
وأردفت تقول لها:
ـ سآجي غداً لأعلمك كيف تتزينين وكيف تمشطين شعرك، لأن جهلك ذلك أثر على جمالك.

قالت لها ذلك وراحت لسبيلها.

لم تجبها الفتاة التي ملأ الفرح نفسها مما سمعت، وبقيت كعادتها تنتظر عودة أخيها، الا انها لم تخبره عندما عاد بما جد على حياتها، وما يدغدغ عواطفها من أحاسيس ومشاعر زرعته في نفسها العجوز التي فتحت لها الباب وتصدقت عليها ببعض كسرات الخبز.

نامت الفتاة متشوقة لصباح اليوم التالي، وللساعة التي يغادر أخوها البيت، لتقضي فراغها مع العجوز التي أبدت لها رغبتها في تعليمها العناية بزينتها وتمشيط شعرها والاهتمام بجمالها.

ما أن غادر أخوها البيت مع النمرين حتى تركت الباب مفتوحاً على غير عادتها، تترقب قدوم العجوز الكاهنة الا ان انتظارها لم يدم طويلاً فسرعان ما أقبلت العجوز ورحبت بها الفتاة وهي تسلم لها قيادتها.

الا أن العجوز قالت لها:
ـ لا بد من اشرافي عليك وانت تغتسلين في الجدول لأتأكد من نظافة جسمك قبل أن أشرع في تعليمك كيف تمشطين شعرك وترتدين زينتك.

وافقتها الفتاة وسارت معها الى الجدول، وتجردت من ملابسها والعجوز تدلك لها جسمها وترشها بالماء وعندما انتهت من الاغتسال ارتدت ثوبها وقعدت عند قدمي العجوز لترتب لها شعرها، فأخذت العجوز تمشط لها شعرها وهي تروي لها القصص والحكايات حتى تأكدت من سرحانها في المستقبل الذي صورته لها فاجتزت خصلة من شرعها المستطيل وطوته في خمارها، واستمرت تمشط شعر الفتاة فودعتها منصرفة نحو ابن السلطان لتقدم له الدليل على نجاحها في المهمة التي كلفها بها.

عندما وقفت أمامه لم تخرج له الشعرة التي طلبها وانما أخرجت له خصلة شعر بطول الشعرة التي عثر عليها لتبرهن له عمق ارتباطها بالفتاة.

فرح السلطان بذلك أيما فرح وراح يقيس طول الشعرة التي عثر عليها بطول الخصلة التي عثرت عليها العجوز الكاهنة التي تأكدت من أن الفتاة هي ضالته فقالت له:

ـ لو أحضرتها الى قصرك وجعلتها من بعض نسائك ماذا ستعطيني؟

أجابها السلطان بقوله:
ـ لك ما تطلبين.

استمرت العجوز تتردد على الفتاة في غياب أخيها لتقص عليها الحكايات وتساعدها على تمشيط شعرها، وتستفسرها عن حياتها مع أخيها والفتاة تجيبها وتروي لها تفاصيل حياتها فتظهر العجوز الاشفاق على شبابها وجمالها من الحياة

هناك وتصف لها قصر السلطان والحياة فيه، وتزين لها فكرة الهروب معها الى المدينة لتعيش في قصر السلطان.

رفضت الفتاة فكرة الهروب في بادىء الأمر لتعلقها بأخيها الا ان استمرار العجوز في تزيين الحياة لها في قصر السلطان وما سيحيط بها من خدم وجوار، وما ستتمتع به من نعيم جعلها تتقبل الفكرة وبقيت تتهيب التنفيذ خوفا من بطش أخيها، فقالت للعجوز.

ـ اذا هربت معك أخشى أن يتتبعنا أخي وينكل بي.

فقالت لها العجوز تطمنها:
ـ اطمئني من ذلك، سيكون مجموعة من حرس السلطان في مرافقتنا.
ـ أخشى ان يتغلب عليهم بمساعدة النمرين.
ـ لن يكون أقوى من جيش السلطان.

اطمأنت الفتاة لوعود العجوز وتأكيدها فوافقت على الهروب معها صبيحة اليوم التالي بعد خروج أخيها. فانصرفت العجوز متجهة نحو السلطان لتزف له البشرى بأن الفتاة ستكون في قصره مساء الغد، وطلبت منه قوة من فرسانه لمرافقتها ومنع أخيها اذا لحق بها لارجاعها، فأصدر السلطان أمره الى مجموعة من فرسانه بمرافقتها مستصحبين معهم حصانه الخاص ليحملها الى القصر.

في صبيحة اليوم التالي ذهبت العجوز الكاهنة، وبرفقتها مجموعة من فرسان السلطان في اتجاه بيت الفتاة، وعندما قاربت المكان تركتهم هناك وسارت بمفردها لتجد الفتاة قد حزمت ملابسها بعد خروج أخيها وبقيت تنتظر قدومها ففرحت بمرآها، وانصرفت هاربة معها، وهي تكاد تسابق العجوز في سيرها خوفا من عودة أخيها، وعندما وصلن الى المكان الذي بقي الفرسان في انتظارهما فيه، اعتلت حصان السلطان التي أرسلت لها، وواصلت السير والفرسان يسيرون ورائها متجهين الى قصر السلطان في المدينة.

عندما عاد أخوها الى البيت لم يجدها في انتظاره كعادتها وتوهم انها نزلت الى الجدول، أو خرجت لقضاء حاجتها فناداها، وتكرر نداءه لها دون ان يسمع من

يرد عليه فراح يبحث عنها في الأماكن القريبة فلم يعثر لها على أثر فعاد يبحث ويفتش في حوائج البيت، فوجد ملابسها والأشياء الخاصة بها قد اختفت معها، فأيقن أنها هربت مع غريب كانت على معرفة به من وراءه، فتذكر وصية والده له بقتلها يوم سفره وعصيانه لأمر ابيه، الأول، والثاني، بقتلها، وفضل أن يعيش معها في ذلك المكان المقفر وحيدين، على أن يعيش بدونها مع اسرته واذا هي تغدر به وتهرب في أول فرصة لاحت لها.

تذكر ذلك وملأت الحسرة والغيظ نفسه، فقفز الى ظهر جواده وهمزه وهو يقول:

ــ قلبي، فؤادي، حصان ابن هادي دقو الوادي انطلقت الحصان تسابق الريح في عدوها والنمرين انطلقا خلالها، وبقي يستحثهم على السير بسرعة ويتمنى لو يطير ليلحق بأخته، التي كانت تتسرع في سيرها مثله مخافة ان يلحق بها في الطريق، فبقيت عيناها مسمرتين نحو الخلف ترقبانه بدلاً من مراقبتها الطريق التي ستوصلها الى قصر السلطان، فلاحظت غبار خيل يسير ورائهم ويقترب منهم، فبقيت تتابعه حتى غدا على مقربة منها تمكنت من التعرف عليه، فصاحت بالعجوز والفرسان قائلة:

ــ أخي يجري في أثرنا ولا بد من دخول المدينة قبل أن يلحق بنا.

سمع الفرسان قولها ذلك اسرعوا في السير وأخذوا يتهيئون لملاقاة أخيها.

عندما اقترب الفتى وشاهد فرسان السلطان يتهيئون لملاقاته وتعرف على أخته راكبة حصان السلطان استل سيفه وهمز حصانه وقال:

ــ قلبي، فؤادي، حصان ابن هادي دقوا الوادي.

قال ذلك وحمل عليهم يضرب بسيفه والنمران يبطشان بمخالبهما، وينهشان بأنيابهما فرسان السلطان الذين حاولوا الصمود والوقوف في وجه الفتى، دون جدوى فلم يجدوا بدا من الهروب للنجاة بأرواحهم نحو أبواب المدينة وعندما اجتازوها أوصدت في وجه الفتى ليحولوا دون استعادته لشقيقته.

لما وجد الفتى الابواب موصدة في وجهه انسحب الى غير بعيد منهاليريح

جسمه. وليأخذ حصانه والنمران راحتهما استعداداً لمعركة اليوم التالي ولما رأى انه لم يخرج أحد لملاقاته من فرسان السلطان، فرض حصاراً على المدينة، ومنع الدخول والخروج منها واليها حتى اضطر السلطان أن يأمر عسكره بالخروج لمحاربة الفتى.

وخرج هو لمشاهدة المعركة والفتاة تقف وراءه وعندما شاهدهم الفتى صاح صيحته المألوفة:

ــ قلبي، فؤادي، حصان ابن هادي، دقوا الوادي.

قال ذلك وهمز حصانه فانطلق الحصان والنمران حواليه واخذ يضرب بسيفه جنود السلطان والنمران يبطشان بمخالبهما بطون الخيول والجنود، وما هي إلا ساعة حتى هرب من بقي منهم في مواجهته والسلطان في المقدمة ودخلوا المدينة وأوصدوا أبوابها وراءهم خوفاً منه.

تكرر حصار الفتى للمدينة وخروج جنود السلطان لملاقاته وهزيمتهم أمامه أكثر من يوم والمخاوف تملأ قلب الفتاة فشكت للعجوز الكاهنة وهي تقول لها:

ــ استمرار هزائم جنود السلطان وانتصار أخي عليهم يوما وراء يوم لا بد وان يستعيدني بالقوة او بالمفاوضات لرفع الحصار عن المدينة، لذا أجد الخوف يتضاعف في نفسي مع كل هزيمة لعسكر السلطان.

فقالت لها العجوز:

ــ أخوكي يستمد قوته من النمرين وهما لم يألفا أحد سواكما وما من أحد يستطيع الاقتراب منهما في الوقت الحاضر غيرك والرأي ان نذهب معا الى مكانهما لنسد آذان النمرين بالشمع وندهن ظهر الحصان من تحت السرج بالحلبة ونترك رباط السرج غير مشدود لنعيق مساعدة النمرين له، ولكي يسقط عن ظهر الحصان.

وافقت الفتاة على القيام بذلك فسارت في الظلام والعجوز بجانبها، وعندما وصلت لم ينكرها الحصان ولا النمرين فراحت تفتح للحصان سرجه وتدهن له ظهره بالحلبة وتركت رباط السرج شبه مشدود، وعمدت الى النمرين

تسد آذانهم بالشمع، وانصرفت والعجوز معها مطمئنة الى نجاح خطتها.

في صبيحة اليوم التالي حاصر الفتى المدينة كعادته وخرج له جنود السلطان كعادتهم، وما ان شاهدهم حتى صاح صيحته المألوفة:

ـ قلبي، فؤادي، حصان ابن هادي دقوا الوادي.

قال ذلك وهمز الخيل فانطلقت تعدو الا ان النمرين بقيا واقفين لأنهما لم يسمعا نداءه بسبب الشمع الذي سدت به آذانهم، فتلفت حواليه فوجدهما واقفين فاستغرب ذلك منهما وأدار عنان حصانه نحوهما وعاود ندائهما فلم يستجيبا له ، فرأى ذلك جنود السلطان فحملوا عليه وحاول بدوره ان يلعب بحصانه قبل أن يلاقيهم فمال به السرج فوقع من ظهر الحصان على الأرض ، وقبل ان يقوم تدافع فرسان السلطان عليه يقطعونه بسيوفهم وتركوه ورائهم وهم موقنين انه قد فارق الحياة وان الوحوش ستأكله ، وساقوا حصانه والنمرين معهم الى المدينة .

بقي الفتى هناك مغسلا بالدماء ومثخناً بالجراح، لا يربطه شيئا بالحياة الا أنيناً خافتاً متقطعاً طرق مسامع جمال مر على مقربة منه فشاهده مشرفاً على الموت، فرق لحاله وحمله معه الى منزله وتولى تضميد جراحه ومداواته وزوجته تعتني بغذائه، حتى أخذ يستعيد وعيه وصحته يوما بعد يوم.

عندما خفت آلامه واستعاد كامل وعيه أخذ يدير عينيه فيما حواليه باستغراب محاولاً معرفة المكان الذي هو فيه ومن أوصله اليه، وتطلع في وجه الرجل والمرأة الجالسين بجانبه، فسألهما من يكونان، وفي أي مكان هو، ومن الذي نقله الى هناك ، فأخبره الجمال أنه عثر عليه ملقياً في الفلاة مشرفاً على الموت من كثرة جراحه ، وسأله الجمال بدوره عن سبب تلك الجراح .

شرد الفتى بذهنه، وعاد بتفكيره الى ماضي حياته واستعاد شريط ذكرياتها، ولسانه يروي للجمال وزوجته تفاصيل حياته من يوم كان يعيش مع أسرته، وقول المنجمين لأبيه قبل سفره ووصيته له بقتل اخته وماذا جر عليه مخالفة ذلك الأمر والاشفاق عليها.

رق الجمال وزوجته لحال الفتى ورثيا لما آلت اليه حياته وقدرا التضحية التي

أقدم عليها من أجل أخته التي غدرت به فضاعفا من عنايتهما به. الا ان الفتى وجد من العسير أن يعيش بينهم بعد أن استعاد صحته وهو لا يقدم لهم أي عون أو مساعدة، فراح يقدم لهم مساعدته في كل ما يقدر على أدائه وهما يضاعفان العناية به ليستعيد قوته ويتمكن من الثار لنفسه.

فسأله الجمال ذات يوم:

ــ هل بمقدورك الآن الأخذ بالثأر من أعدائك لم يجبه الفتى وانما طلب منه أن يقدم له خروفاً ليرى ما اذا كان قادراً على القفز من فوقه أم لا فقدم له الخروف فقفز من فوقه، فطلب من الجمال ان يقدم له عجلاً فحاول الركوب فوقه فلم يستطع.

فأجاب الرجل:

ــ لا زلت عاجزاً عن أخذ الثار لنفسي.

استمر الجمال يغدق عليه المأكولات ويضاعف من عنايته ويقدم له الحيوانات التي يطلب القفز الى ان وجد نفسه قادراً على القفز من فوق الحصان فقال للجمال:

ــ اليوم أنا على استعداد للأخذ بثأري.

فرح الرجل وزوجته بذلك كما لو كان الفتى ابنهما فطلبا منه أن يحدد طلباته التي ستساعده على الوصول الى قصر السلطان، والثار لنفسه، فأوجزها في حمار مريض أعرج، وجلد حمار مسلوخ يرتديه.

وفر له الجمال ذلك وزوده بقوس ونبل، وسيف ورمح أخفاها بين حاجياته وأطلق على نفسه اسم (جليد ابو حمار) وودع الجمال وزوجته وشكرهما على ما قاما به نحوه، وامتطى ظهر حماره الأعرج وسار نحو غايته الى ان وصل المدينة التي تقيم فيها أخته فاستقر هناك يزاول حركات على حماره الأعرج تلفت النظر نحوه ولا تدل على حقيقته.

ما من سباق يحدث بين الفرسان الا واشترك فيه بحماره الأعرج. وما من قوة عسكرية يرسلها السلطان الا وساهم فيها طواعية، وعندما يعود يربط حماره

الأعرج الى جانب خيول السلطان، حتى غدا موضع سخرية الجميع وعندما تأكد ان الجميع يعرفونه ولا يتخوفون منه التفت نحو الخيول يتقرب منها ويعتني بها متنقلا من حصان إلى آخر يحدثه ويضاحكه كما لو كان انسانا مثله حتى وصل الى حصانه الذي عاش عازفاً عن الطعام من يوم فارقه ملقياً على الارض مثخناً بجراحه، فلما رأى صاحبه عرفه فعاودته حيويته ونشاطه. فراح يلتهم كل ما كدس أمامه من علف، و(جليد أبو حمار) يواظب على زيارته أثناء تقديم العلف له.

وكان الحصان قد غدا أسيراً لدى السلطان من يوم استولى عليه بعد أن شاهد مواقفه مع الفتى يومها، وعندما علم أنه استأنس بجليد أبو حمار وعاود الأكل والشرب كعادته ملأ الفرح نفسه وأمر أن يتفرغ جليد أبو حمار للعناية بالخيول، ففرح الفتى بالوظيفة وغدا يهتم بالخيول مولياً حصانه الأولوية واخذ في كل يوم يعتلي ظهر حصان ويتجول به الى أن وصل الى حصانه فأكثر من الركوب والتجول به ليستعيد نشاطه القديم.

كان السلطان يشاهد ذلك وترتاح نفسه لترويض الفرس على يد جليد أبو حمار فشجعه على الاشتراك في مسابقات فرسانه في العدو والرماية حتى غدا أبرز الفرسان في كل الفنون، وذات يوم أقام السلطان حفلة سباق على الساحة أمام قصره اشترك فيها كل الفرسان ليظهر كل فارس تفوقه بالرماية بالرمح والقوس حضرها مواطني المدينة واصطفوا على جانبي الساحة امام القصر لمشاهدة الفرسان الفائزين واصطفت نساء القصر في شرفته يتابعن الفرسان فارس بعد فارس، وعندما أتى دور جليد أبو حمار «الفتى» الذي استصحب معه النمران لم يترك فناً من فنون الفروسية الا وأتى به، وأخته تراقبه وتحدث نفسها:

ـ ألعاب هذا الفارس تذكرني بأخي.

وكان أخوها بدوره يبحث عن مكانها بين نساء القصر في الشرفة حتى تعرف عليها وهو يجول على حصانه فصادف آن ذاك مرور سرب من الحمام يحلق في السماء متجهاً نحو القصر. فاستغل الفتى ذلك ونادى السلطان وهو يجول في

الميدان على حصانه والنمرين بجانبه:

ـ يا سلطان الزمان..

ـ لبيك.

ـ اسمح لي أرمي الحمامة من بين الحمام توهم السلطان انه يشير الى الحمام الطائر فوق سماء القصر فأجابه يقول:

ـ لك ذلك.

فأحكم الفتى نبله وشد قوسه واطلق السهم ليصيب جبين أخته التي هوت من الشرفة الى الساحة وقبل ان يتمكن السلطان من التعرف على ما حدث ومن سقط أمامهم، شد القوس وأطلق السهم الثاني على السلطان وقتله، وعندما تأكد من ذلك صاح صيحته المألوفة:

ـ قلبي، فؤادي، حصان ابن هادي دقوا الوادي.

قال ذلك وهمز حصانه الذي عدى به عائداً نحو أهله والنمرين بجانبه حتى وصل الى قريته ودخل بيته معتذراً لوالده عن عصيانه أوامره، وسرد عليه ما جرى له وصادفه من يوم خروجه من البيت حتى عودته ليعيش معه عيشته الأولى التي لا يكدر صفوها مكروه.

عاش في قديم الزمان سلطان من السلاطين مع زوجته وابنته التي لم يرزق بأطفال غيرها . . كان اسمها «وسيلة» ما أن بدأت تعرف نفسها حتى تسلط عليها طائر يقف على نافذتها كلما حاولت أن تأكل شيئا ليقول لها:

ــ يا وسيلة، يا وسيلة، ما من المكتوب حيله.

يقول لها ذلك فينشق ليخرج منه عفريت يستولي على غذائها ويتركها جائعة . . استمر الطائر يقف على نافذتها ويخاطبها واستمر العفريت يخرج لها من الجدار ويأكل غذائها حتى كبرت وغدت الفتاة ناضجة ، وكل يوم تزداد حيرة في أمر الطائر والعفريت وتتشوق لمعرفة ما هو مكتوب لها ومقدر عليها فقالت لأبيها ذات يوم :

ــ لا بد من خروجي للسياحة في بلاد الله أبحث عن ما كتب لي وقدر علي.

لم يستطع أبوها معارضتها رغم محبته لها وتعلقه بها فزودها بما تحتاج له من النقود في غربتها، وودعها وهي تخرج من البيت بعد ان تنكرت وأخفت نفسها وارتدت ملابس الرجال.

أخذت وسيلة تتنقل من بلد الى آخر. وكلما حلت في بلد عمرت فيه مسجداً وكتبت على واجهته اسمها «وسيلة» حتى جلت في بلدة وعمرت فيها مسجداً وحضر المواطنون يؤدون الصلاة فيه والسلطان معهم، فسلم عليها السلطان وألح عليها في المبيت في قصره فقبلت ضيافته وعادت معه الى القصر،

وهناك طلب منها ان تدخل لتنام في الجناح المخصص للرجال فرفضت ذلك وقالت له :
ـ سأدخل الجناح المخصص للنساء.

اغتاظ السلطان من جرأتها وطلب منها دخول جناح النساء الذي لا يدخله أحد من الرجال غيره، يظنها رجلاً الا أنه كظم غيظه وعاود الالحاح عليها في المبيت في جناح الرجال، وبقيت هي مصرة على المبيت في جناح النساء قائلة له :
ـ لم أعتاد على المبيت في جناح الرجال.

لم يجد السلطان بدا من الاذعان لها فاستدعى أمه وأخبرها بقصته مع الضيف وطلب منها ان تقبله ينام في جناحها اذ لا خوف عليها منه، وحذرها من ظهور النساء عليه.

أذعنت أم السلطان لأمر ابنها فاستصحبت الضيف الى جناحها حيث راح ينزع ملابسه على مرأى منها لتفاجأ أنه فتاة وليس ولداً فأدركت لماذا أصرت على المبيت في جناح النساء. فابتسمت لها وتلطفت في الحديث معها، والفتاة تبادلها الحديث، الا انها بقيت تحتفظ بسرها ولم تقل لها لماذا خرجت من بلادها، وفي الصباح بادرت ام السلطان الى ابنها تخبره بحقيقة الضيف.

قرر السلطان ان يتزوج وسيلة، ففاتحها في ذلك فلم تمانع، وعاشت معه أثيرة على نفسه، خاصة وانه لم يكن قد تزوج قبلها، وعندما ظهرت عليها أعراض الحمل فرح كثيراً وبقي ينتظر مخاضها فولدت له طفلا، وأم السلطان وشقيقاته يحيطنها بعنايتهن وأرقدت الطفل في جانبها وذهبت الشقيقات لسبيلهن وراحت ام السلطان الى ابنها لتبشره.

ما أن خلت وسيلة مع مولودها فاذا بالطائر يسقط على النافذة ويقول لها :
ـ يا وسيلة يا وسيلة ما من المكتوب حيلة.

واختطف الطفل ووضع على فم وسيلة بعض الدماء واختفى في الشق.

أقبل السلطان فرحاً لمشاهدة ابنه فلم يجد الا الاطمار الى جانب زوجته وشفتيها ملطخة بالدم، فساوره الشك بأنها أكلت الطفل فحزن لذلك، الا انه لم

يعاتبها او يعاقبها وعاش معها كسابق عهده فحملت منه وولدت له طفلاً آخر فذهبت ام السلطان لتبشر ابنها. واذا بالطائر يسقط على النافذة ويقول:
ـ يا وسيلة يا وسيلة ما من المكتوب حيلة.

فانشق الجدار وخرج العفريت واختطف الطفل، وطلى فم وسيلة بالدم.

وعندما جاء السلطان لمشاهدة ابنه الثاني وجد زوجته بمفردها وشفتاها ملطخة بالدم، فحزن لذلك وتضاعف شكه منها وحرضته امه وشقيقاته، فلم يصغ لهن وبقي يعيش معها كعادته، فحملت منه وولدت له طفلاً ثالثا، وعندما ذهبت ام السلطان لتخبر ابنها سقط الطير على النافذة وقال:
ـ يا وسيلة يا وسيلة ما من المكتوب حيلة.

فانشق الجدار وخرج العفريت منه، بعد ان اختطف الطفل ودهن فم وسيلة بالدم، واختفى في الشق.

عندما جاء السلطان لمشاهدة ابنه وجد زوجته بمفردها وشفتاها مطلية بالدم فأيقن انها أكلت ابناءه الثلاثة وحرضته امه وشقيقاته عليها فأودعها السجن داخل القصر، وتزوج بامرأة اخرى.

مضت على وسيلة في سجنها عدة سنوات عاشتها قانعة بحياتها، راضية بما كتب لها، وهي تردد على نفسها باستمرار «ما من المكتوب حيلة»، الى ان قرر السلطان ان يسافر الى مكة لاداء فريضة الحج، وراح يطلب من أفراد اسرته ان يحددوا طلباتهم ليحضرها لهم من مكة عند عودته، فحدد كل فرد طلبه ولم يبق الا وسيلة داخل السجن، فقال له أحدهم:
ـ ربما يكون للسجينة رغبة في شيء لماذا لا تسألها.

فكر بالأمر قبل ان يوافق فرأى ان يذهب اليها في سجنها وقال لها:
ـ أنا مسافر الى مكة لاداء فريضة الحج هل يلزمك شيء من هناك.
فقالت له:
ـ احضر لي من هناك حجرة الصبر ومفتاح الفرج.

سافر السلطان الى مكة وبعد اداء فريضة الحج راح يشتري لأقاربه كل

الهدايا التي طلبوها ولم يشتر لوسيلة ما طلبته منه وانصرف عائداً الى المرسى وركب مع الركاب في السفينة وعندما تكامل الركاب نشر الربان الشراع ليقلع عائداً الى بلادهم الا ان السفينة بقيت في مكانها لم تتزحزح فصاح الربان يخاطبهم.

ـ السفينة واقفة ولن تسير أبداً لأن بينكم من في عنقه أمانة حملها معه من بلاده الى مكة ولم يؤدها، على كل واحد منكم ان يتذكر ان كان نسي امانة فليذهب لادائها، والا بقيت السفينة واقفة هنا.

أخذ كل واحد من الحجاج يتذكر ما اذا كان نسي شيئا، فتذكر السلطان انه أهمل طلب وسيلة فقال لهم:
ـ امرأة سجينة طلبت مني حجرة الصبر ومفتاح الفرج ولم اشتر لها ذلك.
ـ لن تتحرك السفينة الا اذا اشتريت لها طلبها.

نزل السلطان من المركب وراح يبحث في السوق عن حجرة الصبر ومفتاح الفرج، وعاد بهما معه الى السفينة فتحركت عائدة بهم الى بلادهم، ولما وصل السلطان الى قصره راح يوزع على أهل بيته هداياه، وأعطى لكل واحد ما طلبه، وأعطى وسيلة طلبها حجرة الصبر ومفتاح الفرج، ففرحت بهما وأخذت تدق الحجرة بالمفتاح وهي تردد:
ـ حجرة الصبر ومفتاح الفرج.

قالت ذلك، فانشق الجدار وخرج منه ابنها الأول وجلس بجانبها، بالمفتاح وهي تردد:
ـ حجرة الصبر ومفتاح الفرج.
فانشق الجدار وخرج منه ابنها الثاني، وجلس بجانب اخيه.
فدقت الحجرة بالمفتاح مرة ثالثة.
ـ حجرة الصبر ومفتاح الفرج.

فانشق الجدار وخرج منه ابنها الثالث، وجلس بجانب اخويه.. وعندما شاهد العفريت وسيلة وهي جالسة مع ابنائها سقط ميتاً بجانبهم ففرحت وسيلة بذلك وأيقنت ان ما كتب لها وخرجت تبحث عنه قد تحقق. فجلست مع أبنائها

تحادثهم وتداعبهم وهم يلعبون حواليها فسمع السلطان صوت حركة وحديث يدور في الغرفة التي سجنت وسيلة فيها فاستغرب ذلك وقال لزوجته:

ــ اسمع صوت حديث وحركة عند السجينة.

فقالت له تحرضه:

ــ السجينة معها أصحاب تختلي بهم في سجنها.

صدقها السلطان وأخذ السيف واتجه نحو الغرفة التي سجن فيها وسيلة، فشاهدها جالسة مع ثلاثة أطفال، فتعجب من ذلك وبقي يرقبهم وقد هدأ غضبه فقالت له وسيلة:

ــ هؤلاء أبنائي.

وأشارت الى العفريت الميت وأردفت:

ــ وهذا العفريت الذي كان يختطفهم.

فرح السلطان بذلك فأخرج وسيلة من زنزانتها وحمل أبناءه وطلعوا الى القصر حيث تجمعت الحاشية حولهم وتعرفت أم السلطان وشقيقاته على الأطفال وتذكرت اختفائهم عقب مولدهم.

حاول السلطان ان ينعم ويرفه على وسيلة ويضفي كرمه وعطفه عليها ليكفر عن ما بدر منه، وليخفف من وقع حياة السجن على نفسها، ورغب لها الحياة في القصر معه، الا انها قالت له:

ــ لم أفارق أهلي وأبي السلطان وأترك بلدي وأسيح في أرض الله حتى جئت الى هنا لأبحث عن زوج، وانما فارقت أهلي وتركت بلدي أبحث عن ما كتب لي وقدر علي، والحمد لله وجدت ذلك وسأعود الى أهلي لأخبر ابي ان ما كتب علي تحقق.

قالت له ذلك وسردت عليه قصتها وما جرى لها منذ بدأت تتعرف على نفسها مع الطائر والعفريت وخروجها تبحث عن مكتوبها، فحزن السلطان عليها وتألم لما عمله معها فزاد تعلقه بها. ولما رأى انه لا يقدر على ارغامها على البقاء عنده

قرر ان يهجر سلطنته ويرافقها الى بلادها ليعيش معها هناك فلم تمانع أو تعترض وذهبا معاً عائدين الى بلادها وكلما مروا على بلاد من تلك التي مرت بها شاهد المسجد الذي عمرته وقرأ اسمها عليه الى ان وصلت بلادها وقابلت أباها ففرح لها ورحب بزوجها وعاشوا جميعا في هناء وسعادة.

على رأس الظالم تقع

عاش في قديم الزمان رجل مع زوجته التي لم يرزق منهابذرية، وعندما حملت منه كان المرض قد داهمه وأحس بدنو أجله، فقال لها:

ــ أشعر بدنو أجلي، وأن عمري لن يمتد حتى تضعي ما في بطنك، وكل الذي أملكه هذه الثلاثمئة ريال، فاذا وضعت ولداً أوصيك أن تحتفظي له بها الى أن يبلغ رشده.

فقالت له زوجته:

ــ اطمئن سأعمل بوصيتك.

مات الرجل وبقيت زوجته تنتظر أوان المخاض، ووضعت ولداً، أخذت ترعاه وتهتم بتربيته والاعتناء به حتى بلغ رشده وصار قادراً على ادارة أموره بنفسه، وعندها سألها:

ــ ما الذي أوصى به أبي قبل موته:

لم تشأ أمه ان تطلعه على كل وصية أبيه (الثلاثمئة ريال) مخافة ان يسيء التصرف ويفقدها كلها في وقت واحد، فقالت له:

ــ أوصى لكَ بهذه المائة ريال.

فقالت له ذلك وناولته المائة ريال، فتناولها منها مسرورا واتجه بها نحو السوق ليستثمرها في البيع والشراء، وبينما هو يحث خطاه نحو السوق استوقفه رجل كهل قاعد على جانب الطريق وسأله :

ــ الى أين أنت ذاهب يا بني؟

أجابه الولد بفرح:
ـ الى السوق لاستثمر هذه المائة الريال التي خلفها لي والدي قبل موته.

فقال له الرجل:
ـ اعطنيها وسأبيع لك بها حكمة تنفعك طول عمرك.

مد له الولد بالمائة الريال وهو يتساءل:
ـ ما هي حكمتك؟

تناول الرجل منه النقود وقال يجيبه:
ـ اليك حكمتي (اقنع بالقليل يأتيك الله بالكثير).

فرح الولد بذلك وانصرف عائداً الى بيته ليجد أمه تنتظره على قلق لترى ماذا صنع بالمائة الريال، وما أن وقع نظرها عليه حتى بادرته متسائلة:
ـ ماذا صنعت بالمائة الريال الذي أوصى لك بها أبوك ؟..

أجابها مبتهجا:
ـ اشتريت بها حكمة.
ـ تقول: (اقنع بالقليل يأتيك الله بالكثير).

سمعت أمه ذلك منه وصمتت على مضض وتركته لحاله.. وفي صبيحة اليوم التالي قال لها أبنها متسائلاً:
ـ ماذا أوصى لي به أبي؟.

أجابته بفتور:
ـ أوصى لك بهذه المائة الريال.

تناولها منها وانصرف مسروراً ليتجه نحو السوق واذا بالرجل الشائب يستوقفه متسائلا:
ـ الى أين انت ذاهب يا بني؟
ـ الى السوق لاستثمر هذه المئة الريال التي خلفها لي والدي قبل موته.

فقال له الرجل:
ـ اعطينها وسأبيع لك بها حكمة تنفعك طول عمرك.

مد له الولد بالمائة الريال وهو يتساءل :
ـ ما هي حكمتك ؟

تناول منه الرجل المائة الريال الثانية وقال له :
ـ اليك حكمتي (لا تخون من ائتمنك ولو كنت خائن).

سمع الولد ذلك منه وانصرف عائداً الى بيته ليجد أمه في انتظاره لتعرف ماذا صنع، وعندما قابلته قالت له متسائلة:
ـ ماذا صنعت بالمائة الريال؟
ـ اشتريت بها حكمة تقول: (لا تخون من ائتمنك ولو كنت خائن).

سمعت أمه ذلك والحنق والغيظ يملأ نفسها ولاذت بالصمت وتركته وانصرفت لحالها، الا أنه بادرها في صبيحة اليوم الثالث متسائلا:
ـ ماذا أوصى لي به أبي؟

أجابته بغضاضة:
ـ أوصى لك بهذه المائة الريال؟

تناولها الولد منها وانصرف متجهاً الى السوق ليرى ماذا عساه سيصنع بها واذا بالرجل الشائب يعترض سبيله متسائلا:
ـ الى أين انت ذاهب يا بني؟
ـ الى السوق لاستثمر هذه المائة الريال الذي خلفها لي والدي.
ـ أعطينها وسأبيع لك حكمة تنفعك طول عمرك.

مد له الولد بالمائة الريال وهو يتساءل:
ـ ما هي حكمتك؟

تناول منه المائة الثالثة وقال له:
ـ اليك حكمتي (اذا لقيت شرح * لا يفوتك).

* الشرح: هو الرقص الذي يحدث في حفلات الزواج والاعياد.

سمع ذلك منه وانصرف عائداً الى قريته ليجد امه في انتظاره والقلق يملأ نفسها لتعرف مصير المائة الثالثة والاخيرة ، وما أن شاهدته يقف أمامها حتى بادرته متسائلة :

ـ ماذا عملت بالمئة الريال التي أوصى لك بها أبوك ؟

ـ اشتريت بها حكمة تقول: (اذا لقيت شرح لا يفوتك).

سمعت أمه ذلك منه وانصرفت حانقة، الا أنه بادرها متسائلا :

ـ ماذا بقي لي من وصية أبي عندك؟

أجابته أمه بحنق :

ـ لقد انفقت كل ما خلفه لك والدك ولم يعد لدي ما أقدمه لك .

طأطأ الولد رأسه وقال يجيب أمه :

ـ سوف أذهب لأبحث عن عمل .

خرج الولد من بيته بعد أن ودع أمه وراح يتنقل في بلاد الله بحثاً عن عمل ، وبينما هو في طريقه صادف امرأة عجوز تحاول اصلاح باب بيتها المكسور، فلما شاهدته قالت له :

ـ تعال أصلح لي هذا الباب وسأمنحك (آنة) أجرتك .

سمع منها ذلك وأجابها :

ـ أفضل أن أبقى بدون عمل على أن أعمل بهذا الأجر. قال لها ذلك وانصرف من عندها. الا أنه سرعان ما تذكر (الحكمة) الأولى التي اشتراها (اقنع بالقليل يعطيك الله الكثير) فقال لنفسه ، كيف أرفض هذا الاجر وقد اشتريت الحكمة بمائة ريال، وعاد مسرعاً نحو العجوز يصلح لها باب بيتها، وعندما انتهى ناولته اجرته (آنة) فأخذها مسروراً وبقي يواصل سيره الى ان وصل الى باب السلطان فوقف هناك يبحث عن عمل، فشاهده السلطان واقفاً فقال له :

ـ هل ترغب في أن تعمل عندنا؟

ـ نعم .

عينه السلطان خادماً في قصره وغدا محل ثقته ، أما السلطانة فقد وقع هواه

في قلبها وتعلقت به وراحت تتودد له وتلاطفه الى ان كان ذات يوم غاب فيها السلطان عن المدينة أخذت تراود الفتى وتعرض له نفسها، وكاد الفتى يستجيب لرغبتها الا أنه سرعان ما تذكر الحكمة الثانية (من أمنك كيف تخونه ولو كنت خائن) وقال لنفسه: كيف أخون السلطان وقد أأتمني، فأعرض عن «السلطانة» ورفض الاذعان لها فحنقت وقررت الانتقام منه والوشاية به، وعندما عاد السلطان قالت له:

ـ لم أعد أحتمل وجود الخدام الجديد ولا أطيق بقاءه بيننا.. استغل غيابك عن المدينة وقام بمغازلتي، وكل هذا نتيجة ثقتك به.

انزعج السلطان من كلامها، ووجد صعوبة في استدعاء الولد والتحقيق معه أو مواجهته بشكوى زوجته، فقال لها:

ـ سنطرده الآن من القصر.

فقالت معترضة:

ـ طرده لا يكفي ولا بد من قتله.

ـ لن أقلته بنفسي لكني سأوكل ذلك الى اهلك.

ـ لك ما شئت وسأرافقه بنفسي الى عند أبي.

أحضر السلطان ورقة وقلما وكتب رسالة الى أب زوجته قال له فيها: (ساعة الوصول اقطعوا رأس الرسول) وختم الرسالة واستدعى الولد وقال له:

ـ أحمل هذه الرسالة الى والد زوجتي، وهي سترافقك الى هناك.

استلم الولد الرسالة وسار بها، وزوجة السلطان تسير وراءه في وسط الطريق. سمع أصوات الطبول في قرية مجاورة فتذكر الحكمة الثالثة التي اشتراها بمائة ريال (اذا لقيت شرح لا يفوتك) فتناول الرسالة وسلمها لزوجة السلطان وهو يقول لها:

ـ سأذهب الى حفلة العرس لأرقص مع الراقصين واحملي انت هذه الرسالة الى والدك وأنا سألحق بك بعد قليل.

لم تمانع السلطانة في ذلك بل فرحت لأنها ستقابل أباها قبله لتوغر صدره

عليه ويعجل بقتله، فذهبت مسرعة وعندما قابلت ابيها سلمته الرسالة ففتحها وقرأ فيها (ساعة الوصول اقطعوا رأس الرسول) فقال لنفسه يعلم الله أي خيانة ارتكبتها ابنتي ضد زوجها، ولم يشأ ان يقتلها بنفسه وانما ارسلها الي لأقوم بذلك، فاستدعى خدمه وأمرهم بقطع رأس ابنته في الحال، وعندما وصل الولد كانت السلطانة قد قطع رأسها فاغتنم لذلك وسلمه أبوها رسالة جوابية الى السلطان قال له فيها: (ساعة الوصول قطعنا رأس الرسول) وانصرف عائداً الى السلطان فسلمه الرسالة، وقص عليه القصة كلها.

فقال له السلطان:

ـ اجلس يا بني على رأس الظالم تقع.

قعاده زاج وقعاده زجاج

عاشت في قديم الزمان أسرة مكونة من شاب وأخته لوحدهما، عيشة هناء واستقرار، الشاب يسعى وراء عمله والفتاة تقوم بأعمال البيت لا ينغص صفوهما ولا يتدخل في شئونهما احد، الى أن كان ذات يوم عندما أبدى الولد لأخته رغبته في الزواج من احدى الفتيات ففرحت اخته بذلك وحثته على الاسراع في الزواج، فلم يمانع وزفت (العروسة) الى البيت لتشاطرهما العيش والاستقرار فيها، وأخته تحيطها بكل عنايتها وتهيء لها أسباب الرغبة والاستقرار، الا أن زوجة الولد ضاق بها الأمر عندما وجدت أخت زوجها تقيم في نفس البيت فامتلأت نفسها كراهية لها وودت التخلص منها . إلا انه لم يكن أمامها آن ذاك إلا كتمان ما تضمره ريثما يستقر بها المقام وتتمكن من التأثير على زوجها والاستحواذ على عواطفه لتوقع بينه وبين أخته ليسهل التخلص منها .

أخذت تهتم بزوجها وتبدي له حبها وهيامها وهو يبدي لها حبه وتعلقه بها، وعندما وثقت من مكانتها في نفسه راحت تطايق أخته وتشي بها عنده وتتهمها بالكسل والاهمال وعدم مساعدتها كلما عاد من عمله، وهو يصغي لها ويلتفت نحو أخته ينهرها ويوبخها وهي صامتة لا تدافع عن نفسها ولا تنفي ما ينسب اليها.

غـدا هذا الموقف يتكرر يوما رواء يوم، الا أن زوجته التي لم تكن لترضى بذلك، قالت له:

ـ هذه الفتاة لا تجدي معها الملامة ولا يفيد العتاب ، الأحسن طردها من البيت .

استنكر ذلك منها وقال يعاتبها :
ـ هل جننت لتقولي اطردها من البيت.
ـ الى متى احتمل كسلها وعنادها.

أيقنت زوجته أن لا فائدة من المحاولة باقناعه بطرد أخته من البيت اذ لا أهل ولا أقارب لها لتعيش معهم لو ألحت على طردها، وان السعي لقتلها أيسر من ذلك فبدأت في تغيير أسلوب ولهجة حديثها معه ومن معاملتها لأخته، فلم تعد تبادره بالشكوى والتذمر من أخته وانما تحدثه حديثاً عادياً عنها، وبعدها راحت تخبره انها تخرج من البيت ما بين حين وآخر وتبدي له قلقها من ذلك، الى أن كان ذات يوم همست له قائلة :
ـ اليوم عرفت سبب خروج أختك من البيت.

نظر اليها وهز رأسه مستفسراً عن السبب، فأدنت فمها من أذنه وقالت له :
ـ أختك مصاحبة (عاشقة) انسان غريب تخرج لملاقاته في غيابك واخشى ان تحمل منه وتسبب لنا فضيحة.

لم يصدقها زوجها أول الأمر وصرف ذهنه عن قولها، الا أنها راحت تعيد عليه قول ذلك يوما وراء يوم وتجسد له الفضيحة حتى بدأ الشك يساوره من سلوك أخته. ليتقوى شكه مع تكرار أحاديث زوجته، حتى كره أخته وغدا يشيح بوجهه عنها كلما وقع نظره عليها.

وكانت اخته في بادىء الأمر تتألم من اصغائه الى وشايات زوجته وتصديق ما تقوله عنها، ومع ذلك بقيت تشاهد ابتسامته وتلمس حنانه فيخفف ذلك من وقع قسوته وتوبيخه على نفسها، لكنها الآن تجد نفسها محاطة بالكراهية وتعيش في جو معاد لها ولا تعرف له سببا، خاصة وقد اختفت ابتسامة أخيها وغدى يتجنب مشاهدتها واذا صادف ووقع نظره عليها فبصورة مغضبة كلها عداء وكراهية فطوت عذاب نفسها بداخلها واستسلمت لقدرها وجسمها بدأ في النحول وشهيتها للأكل كادت تنقطع.

لما لاحظت زوجة أخيها ما آلت اليه صحتها قالت له:

ـ الآن تأكد لي ان أختك حامل.

ـ وكيف عرفت ذلك؟

ـ نحن النساء نعرف ظواهر الحمل وأعراضه، وأختك أخذت تتأفاف من الروائح خاصة الاكل. ألا تلاحظها أنها لا تأكل الا ما يسد رمقها؟

وأظافت تطمئنه:

ـ لا تخشى من ذلك. سأعمل على اجهاضها والتخلص من الجنين، وعليك أنت ان تتدبر أمرها.

صمت زوجها والكآبة تملأ نفسه. وبقي يعيش في هم وخوف من الفضيحة التي ستجرها عليه أخته، الا ان زوجته راحت تكثر من تطمينه وتهدئته وتوعده بتجنب الفضيحة باخراج الجنين من بطن أخته قبل ان يكبر او يشاع خبرها وذات يوم عمدت الى عردان (ابو فردان) وسلخت جلده ولفت لحمه في قطعة قماش، وعندما عاد زوجها من عمله حملت العردان المسلوخ وهو ملفوفا بالقماش وقربته منه وقالت له:

ـ هذا ثمرة غرامها والحمد لله تخلصنا منه قبل أن يكبر والا لكانت الفضيحة بحجم الكارثة.

تناول قصعة اللحم المغلفة بالقماش من يد زوجته يتأملها وحملها الى خارج القرية يدفنها وعاد الى البيت يبحث عن أخته وما أن شاهدها حتى عمد الى خنقها وهي مستسلمة له وعندما لفظت أنفاسها حملها الى جانب البير في القرية ودفنها هناك وعاد الى بيته فاستقبلته زوجته بفرح بعد ان تخلصت من أخته.

ما هي الا أيام حتى نبت على قبر الفتاة المقتولة شجرة نخل أخذت تنمو وتكبر وتمتد الى اعلى.

كانت نساء القرية قد اعتدن على التجمع عند البير يغسلن ملابسهن من مائها وبعدها ينشرنهن على الاحجار وعلى جدران القرية القريبة ليجفوا.. واذ بالنخلة ـ بعدما كبرت ـ تحني لهن ساقها حتى يلامس رأسها الأرض لينشرن

الملابس المغسلة على سعاف جريدها، وتبقى منحنية حتى تجف الملابس وتأخذها النساء وبعدها ترفع رأسها وتقيم ساقها وتعود الى طبيعتها.

استمرت النخلة تحني ساقها للنساء لينشرن الملابس على سعاف جريدها يوميا حتى كان ذات يوم عندما جاءت زوجة أخيها تغسل ملابسها وملابس زوجها فشعرت بخلوتها وأمانها فنزعت ما عليها من ملابس وغسلتهم وعندما انتهت أحنت النخلة لها ساقها حتى لامس رأسها الأرض فنشرت عليها ملابسها واذا بالنخلة تقيم ساقها وترفع رأسها بما عليها من ملابس على غير عادتها، وبقيت المرأة شبه عارية تحتها منتظرة ان تحني النخلة ساقها مرة ثانية لتأخذ ملابسها، ولكن النخلة بقيت منتصبة والملابس على رأسها والمرأة عارية تحتها عرضة لعيون المارة لا تجد ما تستر به عورتها.

بلغ الخبر زوجها فأتى لمساعدتها ولأخذ ملابسها من فوق النخلة، الا أنه لم يتمكن من ذلك. وجاء بمنشار اخذ ينشر به جذع النخلة ليقطعها، فأرسلت أنيناً موجعا وقالت له:

ـ مو تنشر يا نشار، تنشر كعوبي بالمنشار.

سمعها وتوقف عن نشرها، وراح يبحث عن شخص آخر يتولى قطعها بأجرته، وما أن بدأ يحرك المنشار ليقطعها حتى سمع أنينها وهي تخاطبه:

ـ مو تنشر يا نشار، تنشر كعوبي بالمنشار.

سمعها فتوقف عن قطعها وهو يقول:

ـ هذه مش نخلة يعلم الله ايش هي جنية أو انسية.

استعان الرجل بشخص آخر لقطع النخلة، وما أن شرع بذلك حتى سمعها تقول له:

ـ آلمتني يا نشار تنشر كعوبي بالمنشار.

فألقى بالمنشار وفر هارباً من الخوف.

استعان بثالث ورابع لقطعها، وكلما هم أحدهم بذلك سمع أنينها وكلامها وكف عن ذلك نادماً على ما بدر منه. فلم يجد بدا من الاستعانة برجل

أصم وأبكم ليقطعها، فراح ينشرها وهي تأن وتسائله وتعاتبه وهو يسمعها حتى قطعها وهوت على الأرض فأخذا ملابسهما وانصرفا عائدين الى البيت.

مرت امرأة عجوز فقيرة من جيرانهم بجانب النخلة المقطوعة تجمع عيدان الحطب من الطريق في زنبيل تحمله فوق رأسها، فشاهدت في قلب النخلة حبة بلح ناضجة كانت هي كل ثمرها فقطفتها ووضعتها في الزنبيل واستمرت تواصل سيرها تجمع عيدان الحطب، الا انها بدأت تحس بالزنبيل يثقل فوق رأسها وكلما سارت ازداد ثقلاً مع أنها لم تجمع فيه شيئاً كثيراً من الحطب، فحطته من فوق رأسها ونظرت الى داخله لتتعرف على سبب ثقله، فوجدت حبة البلح تكبر بسرعة داخل الزنبيل مسببة ذلك الثقل، فأعادت حمله وواصلت سيرها وهي تتعجب من ذلك. ولما وصلت البيت غطتها بخرقة قماش لترى ماذا سيكون من أمرها، ، ومرت الايام وحبة البلح تكبر وتتضخم وعندما توقف نموها ويبست تشققت وخرجت منها طفلة صغيرة وجميلة فرحت بها العجوز التي عاشت حياتها وحيدة لا يؤنس وحدتها أحد من الأهل أو الأقارب، واعتبرتها ابنتها وراحت تربيها وتعتني بها، وهي تنمو وتكبر وتزداد ملاحة، وعندما غدت فتاة شابة تولت أعمال البيت بمفردها وركنت العجوز الى الراحة والرضى يملأ نفسها، الا انه مع الأيام اخذ الخوف يساورها من ان تفارقها الفتاة في يوم من الايام وترجع هي الى وحدتها وسابق حياتها فعملت على تشديد حراستها عليها وحرصت على ابقائها في البيت لتخفيها عن عيون الناس لكي لا يتعرف عليها أحدهم فيكون سببا في فراقها. . ولكن صادف ذات يوم طلوع الفتاة الى سطح بيت العجوز في وقت كان أخوها يطل فيه من نافذة بيته القريبة من بيت العجوز فوقع نظره عليها فأعجب بجمالها . وقال لعلها فتاة زائرة لبيت العجوز . . ولكن كيف يمكن ان تكون زائرة لبيت ، صاحبته غائبة عنه ولا يمكن ان تكون ابنتها لأنها كما نعرفها تعيش وحيدة بدون ابناء ، فقرر ان يركز اهتمامه على بيت العجوز ومراقبة الفتاة ليتأكد من حقيقتها وهل هي زائرة للبيت أو مقيمة فيه ، ومن هم أهلها ليخطبها منهم ، تكرر طلوع الفتاة إلى السطح وتكرر وقع نظر أخيها عليها فاتضح له ان الفتاة مقيمة فيه ولا تغادره أبداً فقرر ان يفاتح العجوز في امرها ، فلما التقى بها في

الطريق سلم عليها واطمأن على صحتها وهي تجيبه بحمد الله وشكره وبعدها قال لها :

ـ من يوم وقعت عيني على ابنتك ولا غمض لي جفن تعلقت بها نفسي وغدوت لا أقوى على فراقها وأريد منك ان تزوجيني بها واطلبي من المهر ما أردت.

انزعجت العجوز لمعرفته بوجود الفتاة في بيتها الا انها ضبطت اعصابها وأجابته منكرة ومستغربة :

ـ أتسخر مني بكلامك هذا ؟ تطلب مني أزوجك ابنتي ؟ ومن متى كان لدي أبناء أو بنات. . لو كان لي أبناء أو بنات لساعدوني وأعانوني ولجلست في بيتي بدلاً من السير في الطرقات أتسول وأجمع عيدان الحطب. . كيف تسألني هذا السؤال وأنت تعرف اني اعيش لوحدي .

أثرت عليه بلهجتها خاصة وهو على معرفة بحالتها فلم يشأ ساعتها ان يدخل في جدال وتحد معها من اول يوم يفاجئها فيه بمعرفته بوجود فتاة في بيتها وبحبه لها فلاذ بالصمت وترك العجوز تسير في سبيلها وهي موقنة ان أمر الفتاة غدى معروفاً ولم يعد سرا وانصرف لحاله وحواسه ومشاعره مشدودة نحو الفتاة التي بقي يراقبها من نافذة بيته كلما طلعت سطح البيت ليزداد تعلقا بها واصرارا على الزواج منها، أخذ يستوقف العجوز يوما وراء يوم ويكرر لها طلبه في الزواج من الفتاة، وهي تكرر له نكرانها، ويعود ويدخل في تحد معها عن وجود الفتاة وهي ترفض تحديه الا انه ضيق عليها الخناق ذات يوم وقال لها : .

ـ اني أشاهد الفتاة باستمرار من نافذة بيتي ومتأكد من وجودها في بيتك، واذا كنت تريدين ان أكذب نفسي وأصدقك دعيني افتش البيت بنفسي .

ابتسمت له العجوز (التي كانت قد أخذت حيطتها وأخفت الفتاة في حصير طوته وركزته في زاوية البيت) وقالت له :

ـ البيت بيتك فتشها كما تريد.

اخذ الرجل يفتش زوايا البيت زاوية بعد اخرى حتى وصل الى الحصير

المطوي وهزه بيده فألقاه ثقيلا، فتناوله بكلتا يديه من الزاوية ووضعه برفق على الارض وراح ينشره في القاعة لتخرج منه الفتاة فأوقفها لتبقى في مواجهة العجوز وهو يقول لها:

ــ اريد منك ان تزوجيني بها.

وجدت العجوز انه لا مفر لها من مفارقة الفتاة فقررت المباعدة والمغالات في المهر لعله يعجز عن ذلك فأجابته قائلة:

ــ اريد منك كيس ذهب وكيس فضة مهرا لها.

ــ لك ما تطلبين.

التفتت الفتاة نحو العجوز لتقول لها:

ــ هذه مطالبك وحدك وأنا لي مطالبي ولن أتزوجه الا اذا حققها.

سألها مستوضحا:

ــ ماذا تطلبين أنت؟

ــ أطلب قعاده زاج وقعاده زجاج لننام عليهما ولن أتزوجك بدونهما.

ــ لك ما تطلبين.

انصرف ليحضر للعجوز اكياس الذهب والفضة التي طلبتها، وليجهز لغرفة نوم الفتاة سرير من زاج وسرير من زجاج. وبعدها حددوا يوم الزفاف وزفت له الفتاة في اليوم المعين.

دخل العروسان غرفة النوم وقعد كل واحد منهما على سرير وعندما هم بالاقتراب منها تكلم السرير الذي تحته قائلا.

ــ قعاده زاج وقعاده زجاج.

واذا بالسرير الآخر يجيبه متسائلا:

ــ كيف يصح بين الاخوة زواج؟

لم تلق الفتاة اهتماما لما سمعت أما هو فقد تسمر في مكانه يبحث عن تفسير

لما سمع، ولما لم يهتد الى شيء حاول الاقتراب من زوجته مرة ثانية واذا بالسرير يعيد قوله:

ــ قعاده زاج وقعادة زجاج.

فأجابه الثاني:

ــ كيف يجوز بين الاخوة زواج.

تراجع الرجل مرة ثانية يعاود التفكير دون ان يهتدي الى شيء. استمر السريران يكرران حوارهما كلما هم الرجل الاقتراب من زوجته وفي الاخير قال لنفسه، لا بد وان هناك أمرا وراء نطق السريرين وحوارهما يكمن في حياة هذه الفتاة التي ظهرت فجأة في بيت العجوز ولا بد لي من معرفته ، فقال يخاطبها :

ــ أقسم لك بالله، ولك عهده وميثاقه اني لن أقربك ولن أعاملك كزوجة ابدا، وكلما أرجوه هو ان أعرف حقيقتك واسمع قصتك.

أخذت الفتاة تروي له قصتها من البداية وتروي له معاملة زوجة أخيها لها واتهامها بالزنا واستدلالها (بعردان) مخلوس حتى أوغرت صدر أخيها فقتلها ودفنها بجانب البير الى اخر قصتها. كانت تتكلم وهو مصغ لها فأيقن انها اخته التي كادت لها زوجته عنده وتسببت في قتلها، فندم على ما بدر منه نحوها ، فاقترب منها يضمها الى صدره وهو يقول لها :

ــ سامحيني فأنا هو أخوك، صدقت وشايات زوجتي ضدك وصنعت بك ما صنعت ابتسمت له اخته وهي تبادله القبل، وطلق الرجل زوجته وبقي يعيش مع اخته كما كانا يعيشان من قبل.

سيف القاتل

عاش في قديم الزمان رجل فقير يعمل خياطاً يدعى حسن سيف، عرف بالبلاهة والخوف، ودأب على الخروج يومياً من بيته الى دكانه في انتظار زبائنه الا ان الحظ كان يعاكسه وقل ان يطرق بابه زبون.

اخذت الايام تمر عليه طوالا، لا يجد ما يقتل به وقته ويملأ فراغه واذا عاد الى بيته مبكراً تسأله زوجته عن حصيلة يومه فلا يجد ما يقدمه لها أو يرد به عليها، حتى أخذت زوجته تفقد ثقتها به واحترامها له يوماً بعد يوم، وبدأت تضعف امام اغتراء أحد الجيران الذي راح يبثها غرامه لتلتقي به ما بين وقت وآخر.

وبينما كان ذات يوم جالسا كعادته في الدكان شاهد الذباب يتساقط على الارض ويتجمع حول قطرات من الحليب ويتزاحم عليها ويتنقل من جهة الى أخرى، فعمد الى صب بعض الحليب على الارض ليرى كم سيتساقط عليه واي معارك ستدور بين الذباب، وبقي يراقبهاويتفرج عليها وهي تتهافت عليه.

خطرت له فكرة التسلي بقتل الذباب المتجمع حول الحليب، فأخذ يضربه بكفه، او يطبق عليه بقبضته او يضربه بعصاه كلما حاول السقوط حول الحليب. ارتاحت نفسه لهذا العمل الذي ملأ فراغه، واعتبر نفسه في حرب مع الذباب، فأحضر قطعة خشب وراح يعمل بمطواة (سكين) فيها، يشكلها ويمثلها حتى غدت على هيئة سيف، فأخذ يمسك به من قبضته ويهزه، ويضرب به على الذباب معتبرا نفسه في حرب معه، معتبراً ما قتل منه ضحايا سيفه البتار، وما يتحرك ولا يقوى على الطيران من الأسرى، وما طار يعتبرهم جبناء فروا من المعركة. بقي في

معركته مع الذباب الى أن آن أوان اغلاق الدكان فقام باحصاء الذباب الذي قتله بسيفه قبل أن يعود الى البيت ليواجه زوجته بشجاعة عندما تسأله عن حصيلة يومه، وما أن دخل باب بيته حتى بادرته متسائلة:

ــ ماذا رجعت لنا اليوم؟.

ما أن سمع سؤالها حتى أخذ يتمشى أمامها ويستعرض عضلاته ويفرك كفيه وهو يجيبها:

ــ اليوم قتلت عشرين، وجرحت عشرة، وهربوا عشرين. . ويعلم الله ايش الذي سيكون من معركة بكرة.

سمعت زوجته اجابته فلاحظت الجدية عليه فأكبرته وبدأت تستعيد ثقتها به وتخشى بطشه اذا عرف علاقتها الغرامية مع جارها، وهي لا تعرف أي معركة خاضها ولا أي قتلى وأسرى يتحدث عنهم، وقررت تحذير عشيقها من غضب زوجها ونقمته فقالت له عندما جاء لمقابلتها:

ــ حسن أصبح رجلا شجاعاً، وأخشى ان يكتشف علاقتنا، والأحسن ان تبتعد عني.

حاول العاشق ان يسخر من كلامها خاصة والجميع يعرفون أن زوجها يخاف من ظله (غومته) فمن أين واتته الشجاعة، الا انها سردت عليه التحول الذي طرأ عليه وثقته بنفسه، والقتلى والجرحى، فلاحظ الجدية في حديثها وداهمه شعور بالخوف من (حسن سيف) فانصرف من عندها وهو لا يصدق ما سمع فقرر ان يعاود زيارتها مرة ثانية.

في اليوم التالي ذهب حسن كعادته الى دكانه وبعد ان شرب كأس الحليب اراق ما بقي منه على الارض، وأمسك بمقبض سيفه وبقي يراقب تساقط الذباب ليدخل في معركته، وما أن بدأ في التهافت على قطرات الحليب حتى راح يضربها بسيفه الخشبي فقتل بعضها وتطاير البعض ليعاود السقوط من جديد ليتلقى الضربات من «سيف حسن»، وعندما آن أوان عودته اخذ يحصي ما قتل وما جرح من الذباب وانصرف عائداً الى البيت فسألته زوجته:

ــ بماذا رجعت لنا اليوم؟.

سمع سؤالها فأظهر من الشجاعة اكثر مما أبداه في اليوم السابق وراح يستعرض عضلاته وهو يجيبها:

ــ اليوم قتلت ثلاثين وجرحت خمسة عشر، وهربوا اربعين.

سمعت اجابته فتضخمت صورته أمامها وزاد اكبارها لشجاعته، فلم تطالبه بشيء من حاجياتها اليومية، وعندما جاء عشيقها لمقابلتها أوصدت الباب في وجهه وهي تقول له محذرة:

ــ حسن قتل اليوم ثلاثين، وأسر وجرح خمسة عشر، وهربوا اربعين، فلا تحاول الاتصال بي بعد اليوم.

استجاب لتحذيرها ونصيحتها فقطع صلته بها، وبقيت هي تحصي بطولات زوجها وتنتظر ثمارها، وبقي حسن يخوض معاركه اليومية مع الذباب ويحصي القتلى والجرحى والهاربين ويوازن بين أرقامها حتى بلغ مجموع ما قتله ألف ذبابة، وما جرحه منها ألفا، وما طار ألفا، فقرر أن يهجر دكانه ويشهر نفسه ويعلن عن بطولته وشجاعته، فكتب على جانبي سيفه الخشبي هذه العبارة: (هذا سيف، حسن سيف، قاتل الف، وأسر الف، والف هربوا من جهة)، وعلقه على كتفه وراح يسير به في الاسواق والطرقات الى ان وصل الى قرية ودخل مسجدها ليصلي فأسند سيفه الى جدار المسجد فراح الناس يقرؤ ون ما كتب عليه وينظرون الى حسن ويبتعدون عنه، وبعد الصلاة انصرفوا الى حفلة عرس دعي اليها السلطان فانصرف حسن معهم، والناس يقرؤ ون ما كتب على سيفه دون أن يعرفوا معدنه.

كان السلطان يومها يعيش ازمتين حرمتاه المنام وزعزعتا عرشه، ولم يجد من يستعين به او من يخلصه منهما، الاولى (طاهش) يتربص خارج المدينة عند كل مساء ليفترس من يحاول الدخول أو الخروج اليها، والثانية تمرد (الشيخ شوقع) الذي دأب يخوفه بشدة بأسه وكثرة رجاله. وعندما حضر الى حفلة العرس وشاهد حسن سيف متقلداً سيفه قرأ ما كتب على صفحته فملأ السرور نفسه وزالت منه كآبته، وأيقن انه وجد البطل الذي يبحث عنه ويستعين به، وقرر أن يستعين به في قتل الطاهش ومحاربة الشيخ شوقع فاستدعاه وقال له:

ـ اذا قتلت الطاهش الذي يخوف المارة ليلا عند باب المدينة واذا تغلبت على الشيخ شوقع سأعطيك ما تطلب وسأزوجك ابنتي.

استمع اليه حسن وأبدى استعداده وموافقته وعاد الى بيته والخوف يملأ نفسه، وأخبر زوجته بما كلفه به السلطان وأمرها ان تملأ (مخلاة) البغلة بالشعير، وتزوده ببعض الخبز استعداداً لخروجه لملاقاة الطاهش، فعمدت زوجته الى (المخثلة) وملأتها (مسكرة)[1] وحطت فيها بعض اقراص الشعير وربطتها وراء سرج البغلة، وعندما أوشكت الشمس على الغروب ركب حسن سيف على البغلة وسافر الى خارج المدينة وتوقف في المكان الذي يتربص فيه الطاهش، فترجل من فوق البغلة وربطها الى شجرة ونزع السرج منها وترك المخثلة بجانبها، وطلع أعلى الشجرة لينجو بنفسه من الطاهش وربط نفسه الى أحد فروعها ونام غير مبال بشيء.

أقبل الطاهش كعادته ووجد البغلة مربوطة الى الشجرة فبطش بها وأكل منها ورأى المخلاة وتشمم ما بداخلها والتهم (المسكرة) وأقراص الخبز المصنوع منها، وعملت المسكرة عملها في رأس الطاهش وتخدر جسمه وبقي في وقفته تلك مكان البغلة التي أكلها، وعندما استيقظ حسن سيف مع آذان الفجر نزل مسرعاً من على الشجرة يبحث عن السرج ووضعه على ظهر الطاهش وشده الى صدره متوهماً انه يسرج بغلته، وركب عليه وراح يستحثه على السير عائداً الى المدينة، وعندما وصل ربطه الى باب بيته ودخل يطلب من زوجته العناية بالبغلة، فخرجت زوجته لتقدم للبغلة العلف والماء، واذا هي تشاهد نفسها امام الطاهش المربوط عند الباب ويطأطأ رأسه بذلة وانكسار، فعادت هاربة الى البيت لتخبر

(١) (المسكرة) نوع من الشعير او الطفيليات التي تشبه الشعير، وتكثر في مزارعه والفارق هو أن حبة المسكرة ادق من حبة الشعير، ويصعب احيانا التمييز بينهما. والمسكرة معروفة بقوة تخديرها حتى بعد طبخها، فاذا أكل الانسان أي صنف من الطعام مصنوعا منها سرعان ما يسرح في نوم عميق لا يفيق منه الا بعد ساعات طويلة، وقد سمعنا بأفراد بل عائلات التبس عليها التفريق بين المسكرة والشعير وأكلت من المسكرة وسرحت في نوم جماعي عميق لفت نظر الجيران فراحوا لايقاظهم.

زوجها انه عاد على ظهر الطاهش وليس على ظهر البغلة.

كان بعض الناس قد شاهد حسن وهو ينزل من على ظهر الطاهش ويربطه الى جدار البيت فراح ينقل الخبر للآخرين حتى سرى الخبر في المدينة كلها فتجمع الرجال والاطفال عند بيته يشاهدون الطاهش المربوط ويتعجبون من شجاعة حسن، وكيف تمكن من القبض عليه والعودة راكبا عليه، وتطلع حسن بدوره وشاهد الطاهش مربوطاً عند بابه وعرف انه عاد راكباً عليه وليس على البغلة فذابت فرائصه وعاد الى الداخل وهو يدق صدره بقبضتيه ويندب نفسه ويبكي وهو يقول لزوجته:

ــ لو كان أكلني، كيف ستعملين؟

فأجابته زوجته وهي تطمنه:

ــ سلم الله.

الا انه عاود سؤاله الملح:

ــ الا قولي لي، لو كان أكلني، كيف ستعملين؟

فتعاود اجابتها:

ــ سلم الله.

استمر يدق صدره، ويبكي نفسه ويلح على زوجته بالسؤال وراء السؤال.

ــ قولي لي لو كان أكلني كيف ستعملين؟

وتحاول هي ان تهدءه وتطمنه وتقول له:

ــ الناس معجبين بشجاعتك، ويقولون ان مكانتك ستعلو عند السلطان، وانت تبكي على نفسك لو كان أكلك الطاهش سلم الله ونصرك عليه.

لم يقتنع بكلامها، ولم يتوقف عن البكاء على نفسه الا عندما جاءه رسول السلطان يدعوه لمقابلته، فأخذ يكتم ما يعتمل في نفسه ويستعيد مظهره وحالته الطبيعية، وذهب لمقابلة السلطان الذي استقبله ببشاشة والسرور بادياً على وجهه وصافحه وهو يقول له:

ـ لم يكن أحد يتصور انك شجاع الى هذا الحد، فبدلاً من ان تقتل الطاهش قبضت عليه وأسرجته وعدت راكباً عليه وربطته بباب بيتك. لقد خلصتنا من خطره، وبقي عليك ان تخلصنا من الشيخ شوقع، وقد أمرت بتجهيز جيش ليكون تحت تصرفك، وأمرت لك بأقوى وأشجع حصان أملكه لتركب عليه.

طأطأ حسن سيف رأسه امام السلطان وهو لا يدري بماذا يجيبه على ما كاله له من ثناء ومديح على شجاعته التي لم يعرفها وأبدى للسلطان موافقته واستعداده للخروج على رأس جيش لمحاربة الشيخ شوقع، وانصرف من عند السلطان وهو يكتم الخوف الذي اعتراه من الاقدام على المغامرة الثانية.

كان الخبر بأن حسن سيف قبض على الطاهش حيا وربط السرج عليه وعاد راكباً عليه الى المدينة قد شاع في البلاد كلها حتى وصل الى مسامع الشيخ شوقع الذي تعجب من شجاعة حسن سيف وقوته الخارقة، وملأ الخوف نفسه من ملاقاته خاصة وقد وصلت اليه الأخبار ان السلطان سيرسله على رأس جيش اليه ليأتيه به قتيلاً أو أسيراً، فأخذ يحسب لملاقاته ودخول الحرب معه الف حساب، خاصة وهو يملك سيفا يقتل به الفا ويأسر به الفا في اليوم الواحد، وقال يحدث نفسه:

ـ ان رجلا هذه قوته وشجاعته، وتلك فعالية سيفه قادر على انتزاع السلطة وحكم البلاد، فكيف أقابل رجلا مثل هذا والأجدى التفاهم معه.

عندما انتهى اعوان السلطان من تجهيز الجيش الذي سيتوجه لتأديب الشيخ شوقع استدعوا حسن سيف ليسير في المقدمة وقدم له الحصان الجموح الذي لا يجرؤ أحد الركوب عليه، قدم له لما أظهره من شجاعة في ركوبه ظهر الطاهش.

وجد حسن نفسه في موقف حرج وخاف ان يفتضح امره إذا تردد أو رفض الركوب على الحصان، او رفض الخروج على رأس الحملة، فشعر بعزة وكبرياء وقفز الى ظهر الحصان وهمزه بقدميه ليسير فانطلق الحصان يسابق الريح واندفع الجنود يسوقون خيولهم وراءه يحاولون اللحاق به.

حاول حسن ان يهدأ من سرعة الحصان يشد لجامه ويربت عليه والحصان مستمرا في عدوه، وبدأ حسن يفقد توازنه ويتوقع سقوطه من فوق الحصان فتشبث بيديه في مقدمة السرج ومؤخرته، وأغمض عينيه وأخذ يصرخ متسائلا ومستفسراً عن المكان الذي سيقع فيه اذا سقط من فوق الحصان الجموح مردداً في صراخه وتساؤله:

ــ أين شاوقع؟ أين شوقع؟

اخذ صوته العالي وصراخه ومناداته اين شوقع يسمع في أواسط الجيش ويمتد نحو الاعداء كلما تقدم في السير. ولم يخطر في ذهن أحد انه صراخ خائف يستفسر عن المكان الذي سيقع عليه اذا سقط، فيفسرونه انه صراخ شجاع يتشوق لملاقاة الشيخ شوقع، ولاستخفافه به قال اين شوقع ولم يقل الشيخ شوقع، فراحوا يردون عليه ويحددون له المسافة التي بينهم وبين الشيخ ما بين وقت وآخر بقولهم:

ــ ناصفنا الطريق

ــ اقتربنا منه

ــ على وشك الوصول اليه.

اما الشيخ شوقع واعوانه الذين سمعوه يصرخ مناديا ــ أين شوقع؟ اعتبروا ذلك منتهى السخرية بهم وبالشيخ وتهديداً له رأوا ان يسيروا لملاقاته عارضين عليه طاعة السلطان ومسلمين له أنفسهم فخرجوا لملاقاته، وكلما اقتربوا من بعض يسمعون صراخه وتساؤله: اين شوقع اكثر وضوحا فيتضاعف خوف الشيخ منه ويسرعون لملاقاته حتى تلاقى الفريقان، وسدت قوات الشيخ شوقع الطريق على الحصان الجموح الذي يعدو بحسن سيف، وأوقفته ممسكة بلجامه رافعة علامة الاستسلام والطاعة.

عندما شعر حسن سيف بتوقف الحصان فتح عينيه وأدارهما حواليه فشاهد الناس الذين أوقفوه ممسكين به ويسدون الطريق عليه فرح بنجاته من السقوط وغمره الجميل نحو الذين جنبوه ذلك فقفز من ظهر الحصان ناجياً بنفسه وليعانق

الشخص الذي يمسك بلجام الحصان عرفاناً بجميله وصنيعه معه، دون أن يعرف انه الشيخ شوقع الذي خرج لتأديبه.

توهم الشيخ شوقع ساعتها وهو يرى حسن يترجل ليعانقه انه يظفي عليه عفو السلطان متجاوزاً عن تحركه وخروجه عن طاعته، فأكبر شهامة السلطان، وكرم حسن سيف الذي استقبله بالعناق الحار بعد صراخه بالتهديد والوعيد فأقام الحفلات ومد الموائد لاستضافة حسن سيف وجنود السلطان الذي معه، فوجد حسن نفسه بعد خوفه من السقوط من ظهر الحصان موضع تكريم في الحفل تقديراً للنصر الذي أحرزه، ومن قبل الشخص الذي خرج لمحاربته فلاذ بالصمت متقبلاً الضيافة والحفاوة التي أقامها الشيخ شوقع. وعندما فرغوا من ذلك انصرفوا عائدين نحو المدينة لمقابلة السلطان، وحسن سيف والشيخ شوقع يسيران الى جانب بعض بعد أن رفض حسن سيف الركوب على الحصان الجموح معتذراً بالسير مع الشيخ شوقع.

عندما وصلوا المدينة استقبل حسن سيف بالرايات والزينات تكريماً لانتصاره ولاقاه السلطان معانقاً وأنعم عليه بالأموال وخلع عليه الحلل وعاش بعدها مع زوجته عيشة لا يكدر صفوها شيء من مطالب الحياة.

لم يكن صاحب البيت يفكر في الزواج أو ملأ الفراغ الذي تركته زوجته المرحومة بوفاتها، كان لا يزال يعيش احزانه ويستجر ذكرياته معها عندما سمع طرقاً على باب بيته تبعه صوتاً رقيقاً ينادي:

ـ اتصدقوا علينا يا أهل الخير بما سخركم الله.

فرقت مشاعره للصوت وأخذ كسرة خبز وحبوب وطعام واتجه نحو الباب ليفتح ويقدم ذلك صدقة للمسكين، فوجد نفسه امام فتاة شابة في العشرين من عمرها تتمتع بحيوة وجمال آسر لم تستطع الاسمال البالية التي ترتديها ان تقلل من قوة تأثير جمالها الذي أنساه أحزانه وزوجته الميتة وبقي ممسكا بكسرة الخبز وحبوب الطعام ينظر اليها يتملا حسنها وجمالها، وهتف في اعماقه:

ـ ما أجملها وأنضر شبابها يا ليت ترضى ان تكون لي زوجة، سأعقد عليها الآن.

لما لاحظت الفتاة وقوفه ذاك وابطاءه في اعطائها ما حمله معه من خبز وحبوب، مدت نحوه يدا بيضاء ناعمة من كم قميصها القديم وقالت له بصوت رقيق:

ـ اعطني ما سخرك الله.

لم يجبها، وانما راح يشبع عيونه من النظر اليها والتمتع بجمالها ويستعرض مفاتنها مستغرباً في نفسه ان تحترف فتاة ـ بمستواها من الجمال ـ التسول، وبدلاً من ان تمتد يده ليعطيها ما حمله لها راح يسألها:

ـ هل لك بالحلال؟

طأطأت الفتاة رأسها وكسرت عيناها خجلا وأمسكت عصاها بكلتا يديها واتكأت عليه ولم تجبه، فعاود سؤاله:

ـ اذا لك بالحلال سأتزوجك، لأن زوجتي ماتت وستكونين خير من يخلفها.

عندما سمعت كلامه ايقنت أنه جادا في الزواج وليس حديثه مجرد عبث فأجابته وهي لا تزال متكئة على عصاها ونظراتها مصوبة للارض:

ـ اذا في نصيب ومكتوب من الله موافقة

لم يصدق الرجل اجابتها بالموافقة فملأ الفرح نفسه وأخذ يستفسرها عن اهلها وبلادها تمهيداً لعقد قرانه عليها فقال لها:

ـ اين أهلك؟

ـ كل واحد في بلاد يتقصدوا الله ويبحثون عن المقسوم.

ـ وأين بلادك؟

ـ بلادي بلاد التويقت[1].

قالت له ذلك ونظرت نحوه لترى ماذا سيقول فرأته يهز رأسه ويبتسم لها فأدركت انه عرف ما تعني، فعادت تطرق برأسها الى الارض وبقي هو يتعجب من جمالها، والفرح يملأ نفسه بموافقتها على الزواج، والتردد يثنيه من الاقدام على ذلك لعدم ارتباطها بأهل أو قرية، والمثل القائل (يا متزوج من الطريق راجع الزربه) يرن في اذنه. وجمالها يشده نحوها.

تداخل اعجابه بجمالها وفرحه بموافقتها على الزواج وخوفه من عواقب الزواج من فتاة لا يعرف شيئاً عنها فتغلب الاعجاب والشفقة على الخوف والتردد فقرر ان يتزوجها لتشاطره حلو العيش ومره، فمشى معها الى القاضي ليعقد لهما

---

(١) (تويقت) تصغير لكلمة توقيت ومشتقة من الكلمة الدارجة تيواقت، وتشير الى ان الفتاة متسولة لا ترتبط بأسرة ولا بقرية تعيش مرتبطة بمواقيت تناول المواطنين للغذاء وعندما يحين أوانها تذهب لتطرق الابواب مستجدية الصدقة والاحسان.

وتزوجها، وعندما عاد الى البيت طلب منها ان تطلق من حياتها العكاز والثياب المهلهلة وتنسى حياة التسول وأمرها ان تدخل الحمام لتغسل جسمها من الأوساخ قبل ان ترتدي الملابس الجديدة التي اشتراها لها .

بدت له بقوامها اللدن الجميل، وملابسها الجديدة وشعرها المرسل الطويل اكثر روعة وجمالا، فزاد تعلقا بها واعجابا بحسنها، فحط فيها كل ثقته ومثلما سلمها مفاتيح قلبه سلمها مفاتيح بيته، وأطلعها على كل ما يملك إلا انها كانت تجهل المطلوب منها اداءه من طبيخ واهتمام بالبيت فراح يعلمها ويدربها عل العجن والطبخ ويعدها لتكون ربة بيته فاستجابت له وعندما تعلمت بقيت تقوم بأعمال البيت وانصرف هو الى عمله مطمئنا لا يفتش ولا يدقق ولا يتدخل في شئون البيت.

وما أن اطمأن اليها وملأت السعادة نفسه بالحياة معها حتى بدأ الحنين لحياتها السابقة يعاودها، وبدأ السأم من الجلوس وحياة الاستقرار في بيت الزوجية يتسرب الى نفسها، فكتمت ذلك في نفسها، وعاشت تعاني لوحدها فبدأ شبابها في الذبول، ورونقها في البهوت، ونضارتها في الظمور، وجسمها في النحول، كلما زاد بها الشوق لحياتها الماضية وملأ السأم نفسها من الاستقرار في البيت.

بقي زوجها يشاهد ذلك فيستغرب من الهزال الذي اصابها والشحوب الذي يعلو وجهها فتوهم انها تعاني من مرض خجلت ان تشكو له منه فاستشعر المسئولية وأحس بالاثم تجاهها فقال لها:

ــ انت تعانين من مرض ولا شكيت منه ولا تكلمت عنه حتى أثر على صحتك.

نفت ان تكون مريضة او تشكو الما، الا انه عاد فقال لها:

ــ كيف لا تعانين من مرض وانت تزدادين كل يوم نحولا؟

ــ ربما يكون اختلاف الهواء والماء سببا في ذلك.

حار في أمرها وفكر في نفسه، ربما قصرت معها في توفير كل متطلباتها فسألها:

ــ هل انتقصت عليك شيء لأوفره لك؟

ـ لم تقصر في شيء من متطلبات البيت ولدينا فائضا منها.

لم تقنعه اجابتها فبقي يحدث نفسه:

ـ ان في الأمر شيئا، ولا يعقل ابدا أن يطرأ عليها كل هذا التغير والتبدل بدون سبب او علة، لا شك انها تعاني من شيء تكتمه في نفسها، فقرر في نفسه ان يختفي عنها ويعطي لها كامل حريتها ويوفر لها كل ما يمكن ان تطلبه لتتصرف في غيابه وفي خلوتها كما تريد ووفق ما يحلو لها، لعلها افتقدت شيئا لم يوفره لها وخجلت من طلبه، فقال لها ذات يوم:

ـ ربما اتخلف عن تناول الغداء معك غدا، ولربما أغيب عنك اليوم كله واليوم التالي وكل ما ستحتاجين له من نقود ومواد غذاء متوفر لديك، فأريحي نفسك وتمتعي بيومك لوحدك او مع صديقاتك كيفما شئت ولا تفكري بشيء.

لم تجبه ولا استفسرته عن سبب غيابه عن تناول الغداء في البيت، او عن سبب المبيت خارجه ولا أين سيقضي أوقاته، فما ان سمعت قوله بتخلفه عن تناول الغداء ولربما تغيب عن المبيت ملأ نفسها فرحا ورأت فيها الفرصة التي تتمناها.

في صبيحة اليوم التالي تظاهر لها بالخروج من البيت واتجه الى احد الدهاليز المظلمة واختفى فيه ليقوم بمراقبتها ليتعرف على ما ينقصها فيعمل على توفيره، وما تشكو منه ليداويها فاختفى في الدهليز وبقي يراقب تصرفاتها وماذا ستعمله في خلوتها، وبمن ستتصل او من سيتصل بها.

ما أن شعرت بانفرادها وخلوتها في البيت حتى دب في جسمها النشاط، فأحضرت الدقيق، والحلبة، والشربة وسكبت الدقيق داخل الجفنة وراحت تعجنه. وعندما انتهت، اضرمت النار في المافي (التنور) وعادت الى العجين تقسمه وتحوله الى اقراص تدلي بها الى المافي، وعندما انتهت وضعت اناء الشربة وسط (المافي) وعادت الى الحلبة والبهارات تسحقها.

كانت تقوم بعملها ذاك وتعد وليمتها وحفلتها بخفة ونشاط حتى عاودها شيء من رونقها ونضارتها وحيويتها بالرغم مما بذلته من جهد وعانته من مشقة في اعداد كل ذلك القدر من الطعام.

عندما انتهت من اعداد كل ذلك حملت اقراص الخبز ونزلت بها درجات السلم الى الدهليز، فوضعت رغيفا على الدرجة الاولى، ورغيفا في الدرجة الثالثة، ورغيفا في الدرجة الخامسة، ورغيفا في اعلا درجات السلم، واتجهت الى وسط (الدارة) الصالة فوضعت أربعة أقراص فيها ، وعادت الى المطبخ فوضعت في جانبيه ثمانية أقراص على كل جانب أربعة منها ، ووضعت أربعة أقراص في أحد زوايا البيت .

عندما انتهت من توزيع أقراص الخبز سكبت ما اعدته من حلبة وشربة في أواني صغيرة ، فوضعت بجانب الكوم الأول في المطبخ اناء حلبة ، وبجانب الثاني اناء شربة ، وبعدها راحت توزع الأواني على اقراص الخبز .

وعندما انتهت من ذلك كله مشت نحو المكان الذي احتفظت فيه بهلاهيلها التي كانت ترتديها قبل زواجها فأخرجتها مع عصاتها، وراحت تخلع الملابس التي عليها وترتدي هلاهيلها، وبدأت بتمثيل مسرحية حياتها السابقة التي اشتاقت لها كثيرا.

وقفت بباب البيت وقرعته بعصاتها وهي تقول :

ــ يا رب يا كريم، يا فاعلين الخير، تصدقوا على امرأة جائعة مسكينة.

غيرت لهجتها ونبرات صوتها وأجابت نفسها كما لو كانت ربة بيت تخاطبها:

ــ الله كريم، روحوا اطلبوا الله على انفسكم.

تعلق نظرها بأعلى السلم الذي تقف اسفله وقالت:

ــ انا امرأة مسكينة ارحميني يرحم الله امواتك ويصلح لك اولادك.

استدارت لتمثل ربة البيت وتجيب نفسها المتسولة:

ــ خذي هذا الرغيف، واياك ان تعودي.

استدارت وجلست في الدرجة الاولى وحطت عصاتها بجانبها وراحت تقضم الرغيف الجاف الذي وضعته وهي تطعم له مذاقا خاصا وحلاوة لم تجدها فيما تناولته من غداء مع زوجها، وعندما انتهت استقامت وتناولت عصاتها

وراحت تقرع بها السلم وهي تنادي بصوت حزين:
ــ يا فاعلين الخير، ويا محبين الثواب تصدقوا عل امرأة مسكينة.

استدارت لتجيب نفسها بلهجة جافة:
ــ البلاد كلها مساكين كأنهم ذباب تنبت مع المطر، يعلم الله اي قرية تزرع المتسولين، رواحوا اطلبوا الله على انفسكم.

استدارت تنظر الى اعلى السلم نظرات رجاء وهي تقول:
ــ انا امرأة ضعيفة لا أقدر اشتغل، ولا معتادة على التوسل، لكن الحاجة اضطرتنا لنمد أيدينا.

استدارت وهي تقول لنفسها:
ــ خذي هذه واملئي بطنك.

قعدت بجانب الرغيف الثاني واخذت تلعكه وترتشف من الشربة وعندما انتهت، واصلت نداءها تطلب الصدقة والاحسان وهي تقرع السلم بعصاتها، واستمرت في تخطي درجات السلم حتى فرغت من أكل ما عليها من أرغفة خبز، وبعدها عادت الى المطبخ لتأكل ما بداخله من خبز وانصرفت بعدها نحو زوايا البيت تبحث عن غيرها وعندما انتهت من ذلك ولم تجد زوايا تواصل الاستجداء فيها عمدت الى ملابسها الاثرية تخلعها وتعيدها مع عصاتها الى مخبئها وارتدت ملابسها العادية وجلست تنتظر عودة زوجها لتتناول وجبة العشاء معه اذا عاد، وهي تجهل انه في البيت يراقبها ويشاهد حركاتها ويسمع كلامها.

بقيت تترقب عودته وهو في مخبئه ينتظرها ان تقوم بكل ما تود القيام به، وعندما رآها فرغت من ذلك، قام وفتح الباب وخرج منه وأعاد قفله وناداها ليشعرها انه عاد من سفره، فهرولت نحوه تستقبله باشة ضاحكة والحيوية تملأ نفسها فتجاهل حركاتها وطلع السلم وقعد في الدارة مسندا ظهره الى جدارها مادا رجليه امامه ليريحهما من التعب كما لو كان قادماً من سفر. عندما استقر في جلسته تلك بعض الوقت ناداها ان تعد له عشاءه أو تحضر له ما لديها من أكل، فما ان سمعت كلامه حتى هرولت تعد له السفرة وهي تقول:

ـ العشاء جاهز، مع انك لم تحدد ساعة ولا يوم لعودتك فقلت أحسن شيء ان أعد الطعام في الاوقات التي حددتها لعودتك.

أبدى لها شكره وقال لها:

ـ اقعدي لنتعشى قبل ان يبرد الأكل.

جلست معه وراحت تلتهم من اقراص الخبز التي امامها وهو يشاهدها بصمت ويتعجب من التهامها ذلك القدر من الطعام وجلوسها لمشاركته طعامه. وعندما شبع وقام من المائدة قامت معه وغسلا ايديهما معا فتجشأت المرأة تفرغ الغازات التي واكبت كمية الطعام واعداد الارغفة التي التهمتها، فرفعت يديها نحو السماء تحمد الله وتشكره وتسرد حكايتها وهي تقول:

ـ لك الحمد يا ربي، ما دي القناعة بي، اربع على حلبة، واربع على شربة وأربع بالدرجي، وأربع خفا زوجي، وأربع مع زوجي. قالت ذلك ومدت رجليها لتأخذ راحتها ولتترك لكرشها الممتلي ان يخفف من حمله.

أطرق زوجها برأسه وهو يراقب حيويتها ونشاطها والشباب الذي ملأ جسمها فأيقن انها تربت على ما ألفت ولا يمكن الا ان تعيش على ذلك فطلقها وهو يقول:

ـ صاحبة التويقت تتذكر ماليقها.

فغدا ذلك مثلاً.

تطهبشه الكسبه*

كتب المقدر والنصيب على فتاة من بني دومان ان تتزوج على شاب من قرى أخرى تبعد كثيراً عن قريتها انتقلت معه الى قريته لتعيش هناك بعيدا عن اهلها وأقربائها . . ومضت الشهور دون أن تأتي لزيارتهم أو يذهبون هم لزيارتها حتى كادت أخبارها تنقطع عنهم ، فهيج ذلك من شوق أبويها اليها وحنينهما لرؤ يتها واخذ ذلك يزداد يوما وراء يوم الى حد طغى فيه الحنين لرؤ يتها على كل شيء فقال الرجل لزوجته :

ـ لقد طال فراق ابنتنا لم نشاهدها منذ تزوجت ولم أعد قادرا على مقاومة الشوق لرؤ يتها .

أجابته قائلة :

ـ أنا أكثر شوقا منك اليها ولكن ماذا سيوصلنا اليها . فاذا كنت ترغب في زيارتها سآتي معك .

أجابها معترضا :

ـ المسافة الى قرية زوجها بعيدة ومجيئك معي معناه السفر الطويل بما فيه

* الطاهش وحش مفترس اسمه يثير الفزع عند كثير من اليمنيين في اكثر من منطقة . وقد كثرت حديثهم وأقاصيصهم عنه . (الكسبة) تسمية دارجة للنعجة ومعنى التسمية ان النعجة وهي المعروفة بضعفها وخوفها وجبنها سرت فيها روح الطاهش المتوحش وتحولت الى وحش مفترس منه وحول (تطهبشه الكسبة) تدور هذه الحكاية .

من متاعب ومشاق لا تقدرين عليهاوالأحسن أن أذهب مع مجموعة من أصدقائي القادرين على احتمال مشاق السفر والسير وسأبلغها شوقك وسلامك.

لم تمانع زوجته في أن يستصحب معه بعض الشباب لرفقته في زيارته بدلا منها وقالت له:

ــ الرأي ما تراه أنت.

تشاور الرجل مع أصحابه فيما ينوي القيام به من زيارة لابنته وطلب منهم مرافقته فأجابوه لذلك واختار من بينهم ستة أشخاص رفاقا له. تهيأ الجميع للسفر ويوم سفرهم استصحبوا معهم كثير من القات (الطلعة) و(كسبه) نعجه كما هي العادة في مثل هذه المناسبات ليقدموها لأصهارهم مقابل ضيافتهم.

غادروا قريتهم متجهين نحو القرية الاخرى وهم يحملون القات ويجرجرون النعجة ورائهم واستمروا في سيرهم حتى داهمهم الظلام ولم يعودوا يشاهدون مواضع اقدامهم فصادفوا في طريقهم (جلب) كوخ صغير يأوي اليه المسافرون او يحتمون فيه من الأمطار فقال أحدهم:

ــ لن نتمكن من مواصلة السير في هذا الظلام ونخشى ان نضل طريقنا او تعترضنا بعض الوحوش ما رأيكم لو استرحنا هنا في الجلب بعض الوقت ريثما يطلع الهلال وبعدها نواصل سيرنا على ضوئه.

أجابه أحدهم:

ــ الرأي ما رأيت ولا بد لنا من بعض الراحة هذا أحسن مكان نرتاح فيه حتى طلوع الهلال.

وافق الجميع على هذا الرأي وحطوا ما يحملونه من قات وادخلوا النعجة الى الكوخ (الجلب) واخذوا أماكنهم الى جانبها، فقال أحدهم:

ــ نخشى ان يداهمنا النعاس وننام طيلة الليل.

أجاب آخر:

ــ سنستعين بالقات على مقاومة النعاس ريثما يطلع الهلال.

---

(٢) الطلعة. أو الجده لصنف من القوت مشهور بقوة تأثيره.

ـ القات سوف ينسينا التعب وسيشد أعصابنا لمواصلة السير.

امتدت أيديهم الى أوراق القات الطلعة الذي يحملونه معهم للضيافة وأخذوا يحشون أفواههم منه يعلكونه باسترخاء متكئين على بعض الاحجار وهم يتبادلون الاحاديث الى ان استوى الهلال قبالتهم في المساء وأخذ يرسل ضوءه على البرية وبدت الطريق واضحة أمامهم فتأهبوا لمواصلة السير الا أن أحدهم صاح قبل تحركهم وكان قد (خفقن)[٣] من تأثير القات :

ـ يا جماعة لا تسرعوا في السير عدوا أنفسكم قبل ان تغادروا الجلب لنتأكد من عددنا وأنه لم ينقص واحدا منا . الدنيا ليل ونخشى ان يكون حدث لأحدنا شيئا .

أجابه أحدهم . . انت على حق لا بد من التأكد من عددنا قبل مواصلة السير ربما يكون حدث لنا شيئا .

صاح ثالث :

ـ استعيذوا بالله من الشيطان الرجيم وتخلوا عن الاوهام والوساوس . انا سأتولى العد بنفسي لتتأكدوا أنه لم يطرأ شيئاً وعليكم ان تلزموا أماكنكم أمام الجدران وتلزموا الصمت لأتمكن من عدكم .

امتثل الجميع لأمره ولزموا الصمت بينما راح هو يعدهم واحدا بعد الآخر حتى انتهى من عدهم الى السادس . ناسياً ان يعد نفسه معهم لكونه واحداً منهم فصاح معلنا النتيجة المفزعة :

ـ لقد نقص واحد منا لأن الموجودين ستة أين ذهب السابع وماذا جرى له .

فصاح أحدهم :

ـ لا يعقل ان نفقد واحداً منا ويبدو انك اخطأت في العد دعني أنا أتولى العد .

لم يمانع أحدهم في ان يتولى هو عدهم واذا به يحذو حذو صاحبه يعد كل

---

(٣) خفقن اضطرب تفكيره وأخذ يتحدث عن اشياء غير معقولة .

الموجودين وينسى ان يعد نفسه فصاح فزعا:
ــ نعم لقد نقص واحد منا. اين ذهب. من أخذه او أكله.

تشكك كل واحد في النتيجة ولم يصدق ما قاله من انهم نقصوا واحدا من مجموعتهم. فراح كل واحد يحصي الموجودين ويهمل نفسه حتى انتهى الجميع من الاحصاء وتوصلوا كلهم الى قناعة أنهم فقدوا واحدا منهم فرفعوا أصواتهم بالصياح والبكاء حزنا على الشخص الضائع منهم فراحوا يفتشون فيما بينهم عما يكون قد حدث له وهم يتساءلون:
ــ أين يمكن ان يكون قد ذهب وكيف اختفى.
ــ انه لم يدخل علينا أحد. ولم نشاهده يخرج من بيننا.

واذا بأحدهم يشاهد انعكاس ضوء القمر على عيون النعجة الواقفة بجانبهم في الكوخ فتعكس بدورها بعض اللمعان لمن ينظر اليها فصاح معلناعن من أكل صاحبهم:
ــ الكسبة. الكسبة « تطهبشة » وأكلت صاحبنا، أنظروا الى عينيها انها عيون طاهش لا عيون كسبه.

نظر الاخرون الى النعجة وشاهدوا بريق عينيها فصاحوا مؤيدين رفيقهم:
ــ نعم نعم الكسبة تطهبشه وأكلته.

قعدوا يبكون ويولولون ويندبون رفيقهم الذي أكلته النعجة.

سمع بكاءهم وصياحهم عابر سبيل مر بالقرب منهم فاقترب من باب الكوخ يستفسرهم عن ما حل بهم فأجابوه بصوت واحد نبكي على صاحبنا.
ــ ماذا حدث له حتى مات. او أصيب بمكروه.
ــ الكسبة تطهبشه وأكلته.

سمع اجابتهم وأدرك ان شيئا ما حدث لهم والا لما قالوا ذلك فعاود سؤاله:
ــ كم كان عددكم؟
ــ سبعة.

أخذ يعدهم فوجدهم سبعة فزاد استغرابه مما جرى لهم وقال :
ـ هل عديتم أنفسكم؟
ـ عدينا أنفسنا أكثر من مرة. وما من واحد الا وقام بذلك. فوجدنا أنفسنا كما ترى ستة والسابع أكلته الكسبه..
ـ اعتدوا أمامي مرة ثانية وأنا سأعدكم.

قاموا بعد أنفسهم على الطريقة الاولى. واحد بعد آخر وكل منهم نسي أثناء العد ان يعد نفسه مع من عدهم وبقى هو يتابعهم حتى انتهوا وقالوا له:
ـ هل صدقت ان الكسبة تطهبشه واكلت صاحبنا.

ساعتها تأكد الرجل انهم (مخفقنون) من تأثير القات فتوهموا ما توهموه فقال لهم:
ـ ما رأيكم وأنا أتولى عدكم بنفسي لأتأكد من عددكم.
ـ لك ذلك.
ـ سأبقى خارج الباب وانتم أخرجوا واحدا بعد واحد لأتمكن من عدكم وكل واحد منكم يعد نفسه بعدي عندما أعد.

امتثلوا لكلامه ووقف هو خارج باب الكوخ ممسكاً بعصاته الغليظة وكلما خرج واحد منهم خبطه بها وسط ظهره وهو يقول:
ـ واحد.
فيصيح الرجل من الألم وهو يردد:
ـ واحد.
ـ اثنين.
تتابعوا في الخروج ومن خرج لا يشعر الا والعصاة تهوي على ظهره.. وهو يسمع رقمه فيردد ذلك وهو يتحسس ظهره.. حتى تكاملوا السبعة فقال لهم:
ـ كم عددكم الآن؟
ـ الآن عددنا سبعة وليس ستة.

ودعهم وانصرف لحاله.. وأخذوا هم يواصلون سيرهم لزيارة أصهارهم يحملون القات على ظهورهم ويجرجرون النعجة ورائهم.

الحبّة

كانت مجموعة من أبناء قرية من القرى مجتمعين خارجها كعادتهم يستفيئون ظل شجرة كبيرة ويتبادلون الاحاديث والحكايات المختلفة فيما بينهم، عندما استلفت نظر أحدهم (حبة) مرمية على الارض بالقرب منه فتناولها بيده وراح يقلبها ويفحصها محاولا التعرف على نوعها.

كانت الحبة بحجم حبة الليمون لكنها ليست ليمونا ولا تشبه الليمون، فهي صلده ولونها ابيض يشوبه نوع من الصفرة اخذ يقلبها ويتشممها ويضغط عليها بأصابعه، فلم يشتم لها ريحة ولا تأثرت من ضغطه، ولما أعياه أمرها التفت الى أصحابه وقال يسألهم وهو يعرضها عليهم:

ــ من شاهد منكم حبة مثل هذه أو يعرف نوعها، أو من أي شجرة هي: انها ثمرة شجرة غير معروفة في القرية.

أخذها الرجل الذي بجانبه وراح بدوره يضغط عليها ويقلبها ويشمها ويبحلق فيها، ويشغل ذهنه في معرفة نوعها دون جدوى. حار هو الآخر في أمرها ولم يدر ما هي ومدها للذي يليه وهو يقول:

ــ حقا انها ثمرة شجرة غير معروفة.

حاول الآخر التعرف عليها فلم يهتد لذلك فسلمها للذي يليه ليحاول هو بدوره معرفة نوعها.

أخذت الايدي تتلقف تلك الحبة والاعين تفحصها والافكار توغل في

البحث عن معرفة نوعها، والتعليقات تتشعب حولها حتى تحولت الى مشكلة تبحث عن حل.

قال أحدهم:
ـ لماذا لا نبذرها، وعندما تنمو سنتعرف عل نوعها وأي شجرة هي .

اعترض آخر بقوله:
ـ يبدو ان العهد قد تقادم عليها وفسدت ولم تعد صالحة للبذر، والا لكانت نبتت من زمان ولكان نوع شجرتها معروفا في القرية مثل بقية الاشجار.
ـ وماذا يمنعنا من التجربة؟
ـ نخاف نبذرها وتتلف وسنفقد لذة البحث عن معرفة نوعها وأصلها.
ـ سنعرضها على الرجال المسنين في القرية وعلى من لهم معرفة بالاشجار والنباتات خاصة الذين لديهم اهتمام بالاعشاب يجمعون منها العقاقير.
ـ هذه فكرة حسنة ولا شك ان عندهم معرفة بها او قرأوا عنها في الكتب الخاصة التي تحوي اسماء كل الاشجار والاعشاب والنباتات.

أخذوا يمرون بالحبة على الرجال المسنين في القرية والقرى المجاورة، وعلى المشتغلين منهم بتركيب العقاقير يستفسرونهم عن نوعها، لكنهم حاروا جميعا في معرفة نوعها، الا ان أحد الرجال المسنين قال لهم:
ـ لن يتمكن أحد من التعرف عليها أو يدلكم على نوعها الا رجلاً طاعناً في السن يقيم في دير على رأس جبل بعيد على مسافة يوم من هنا، فهو وحده يمكن ان يدلكم على نوعها ويعرف ما هي بحكم كبر سنه.

فقال الذي عثر عليها:
ـ سأذهب اليه صباح الغد وأستفسره عنها.
ـ ولماذا كل هذا التعب؟
ـ لا بد لي من معرفة نوعها مهما كانت المشاق.

في صبيحة اليوم التالي استيقظ الرجل مبكراً وحمل تلك (الحبة) معه مع بعض الزاد ومشى يبحث عن الرجل، ويسأل المارة عن الطريق المؤدية الى الجبل

الذي يقع عليه دير الراهب يتسلق جبلا وينحدر من آخر حتى وصل الى الجبل المنشود فشاهد على قمته ديراً صغيراً تقادم العهد على بنائه. راح يقترب منه يطرق بابه. وما كاد يطرق الباب حتى انبعث صوت امرأة من الداخل تجيب متسائلة بصوت جاف وغليظ:

ــ من ذا يزعجنا بطرقه الباب، ماذا يريد منا؟

أجابها يقول والخوف يملأ نفسه من صراخها:

ــ عابر سبيل يريد الكلام مع صاحب الصومعة!

لم تذهب العجوز الى الباب تفتحه لترى ماذا يريد الرجل وانما استرسلت في صياحها وهي جالسة في مكانها:

ــ حتى ونحن نعيش لوحدنا في هذا الجبل المعزول لم يتركوا لنا حالنا؟ ماذا يريدون منا؟

كانت تصرخ وزوجها يسير نحو الباب يفتح فلما وقع نظر الرجل عليه وجده كهلا قد اكتظى وابيض شعره وطالت لحيته حتى وسط بطنه، وتدلى شعر حاجبيه الابيضين وراح يفكر في السن الذي بلغه هذا الكهل من عمره الطويل، الا انه قطع عليه تفكيره بقوله مرحبا به:

ــ أهلا ومرحبا بالطارق العزيز تفضل أدخل.

ــ ليس بي حاجة ال الدخول...

قبل ان يكمل كلامه أجابه الناسك:

ــ لا شك انك متعب من طول السير ولا بد ما تدخل لترتاح بعض الوقت ولتشاركنا طعامنا.

سمعته زوجته فقالت تعقب على كلامه قبل أن يجيبه الرجل بقولها:

ــ وماذا عندك من أكل حتى تعزم الناس عليه؟

لم يلتفت الناسك لما تقوله زوجته وعاود يطلب من الرجل الزائر الدخول الى صومعته الا ان الرجل اعتذر بقوله:

ــ ليس بي حاجة الى الدخول أو الأكل، وقد أتيت اليك مستفسراً عن هذه

الحبة التي عثرنا عليها ولم نعرف نوعها. وسألنا عنها كثيرا من الرجال المسنين فلم يهتدوا الى معرفة نوعها. الا أن أحدهم دلنا عليك وقال انك وحدك ربما تتعرف على نوعها وتدلنا على أصلها.

تناول الكهل الحبة ليقلبها ويتفحصها والرجل ينظر اليه باهتمام ليسمع ما سيقوله عنها، الا ان الناسك هز رأسه مستغربا وحائرا ومد يده للرجل يعيدها اليه وهو يقول:

ـ لم أشاهد مثلها في حياتي، وليس لي معرفة بها أو بنوعها. ولكن لي أخ أكبر مني يقيم في صومعة على رأس ذلك الجبل البعيد، اذهب اليه ربما يكون على معرفة بها فيدلك على نوعها.

نظر اليه الرجل باستغراب وهو يسأله:

ـ تقول لك أخ أكبر منك؟

هز الكهل رأسه وابتسم وهو يجيبه:

ـ نعم لي أخ أكبر مني يقيم في الصومعة التي قلت لك اذهب اليه ربما يدلك عليها.

انصرف الرجل وهو في حيرة من أمر الكهل الذي يقول ان له أخا أكبر منه، اكثر من حيرته من أمر الحبة التي خرج من قريته يستفسر ويبحث عن من يدله على نوعها وصراخ المرأة العجوز وهي تنهر زوجها، يملأ مسامعه. حث الرجل خطاه منحدرا من جبل متسلقا آخر، ينام في أول مكان يصادفه، حتى وصل الى الجبل الذي دله عليه الكهل فتسلقه، فألفى في قمته ديرا يشبه الدير السابق ولما طرق بابه سمع صوت امرأة تتساءل:

ـ من يطرق الباب؟

أجابها والخوف يملأ نفسه من أن يسمع منها ما سمعه من الاولى:

ـ عابر سبيل يريد الكلام مع صاحب الصومعة.

سمعت المرأة كلامه فاتجهت نحو الباب تفتحه وتقول للرجل:

ـ خرج منذ قليل الى وراء الصومعة تفضل ادخل ريثما أذهب لمناداته.

ـ شكرا سأنتظره هنا.

ذهبت المرأة العجوز لمناداة زوجها، بينا جلس هو بجانب الباب ينتظره، فلم يطل غياب العجوز فأقبلت تسير وراء زوجها الذي أسرع في العودة ليرى من يناديه وعندما قابله الرجل وجده أكثر حيوية من أخيه، ليس له تقوس ظهره، ولا طول لحيته، وغضون وجهه فقد بدا بشكل أخف منه بكثير كما لو كان هو الاخ الاصغر. ولما دنا الكهل وشاهد الرجل جالسا عند باب بيته سلم عليه وراح يعاتبه على عدم دخوله ويرحب به:

ـ تقعد هنا والباب مفتوح امامك البيت بيتك تفضل ادخل ارتاح بعض الوقت.

قال هذا والتفت الى زوجته يأمرها:

ـ احضري القهوة والزاد للضيف.

وعاد يطلب من الضيف الدخول، الا ان الرجل اعتذر عن الدخول، ومن تناول القهوة والزاد بقوله:

ـ ليس لدي الوقت لهذه الضيافة، ولا لي حاجة الى الماء والزاد، وانما جئتك مستفسرا عن هذه (الحبة) اذا كنت تعرف نوعها. جميع من سألناهم عجزوا عن معرفتها، ودلونا على أخيك على أمل ان يكون على معرفة بها، ولما ذهبت اليه استفسره عنها حار في أمرها واعتذر عن معرفته بنوعها ودلني عليك بوصفك أكبر منه سناً ولربما تكون على معرفة بنوعها.

تناول الكهل الحبة وراح يتأملها ويقلبها بين أصابعه وهز رأسه وهو يقول:

ـ لم أشاهد مثلها ابدا طيلة حياتي. ولكن لي أخ أكبر مني يقيم في صومعه على رأس ذلك الجبل البعيد، اذهب اليه ربما يعرفها ويقول لك من أي نوع هي!

تضاعف استغراب الرجل لسماعه الحديث عن أخ ثالث فقال يسأله:

ـ تقول لك أخ أكبر منك؟

ابتسم له الكهل وقال يجيبه:

ـ نعم لي أخ أكبر مني ويقيم هناك حيث أشرت لربما تكون هذه الحبة من

نوع عاصره أو سمع به اذهب اليه لعلك تجد خبرها عنده.

انصرف الرجل ليتابع سيره يصعد الجبال وبشق الوديان حتى وصل الى الجبل الذي وصفه له الاخ الثاني ولما اقترب من الصومعة طرق بابها، فسمع صوت امرأة تتساءل:

ـ من بالباب؟

أجابها الرجل:

ـ عابر سبيل يريد مقابلة صاحب الصومعة.

فتحت المرأة العجوز الباب مرحبة به:

ـ تفضل ارتاح بعض الوقت ريثما يستيقظ من النوم لأنه نام منذ قليل.

ـ لا حاجة بي الى الدخول سأنتظره هنا.

ـ لا بد من دخولك وانتظاره في الداخل!

قالت له ذلك وانصرفت تحضر له القهوة وبعض الطعام وعادت تلح عليه بالدخول وهو يرفض ذلك.

سمع الكهل ما يدور بين زوجته والرجل من حوار فاستغرب من وجود انسان غريب في مكانهم المعزول ذلك. فقام ليرى الرجل الذي تتحدث معه زوجته وماذا يريد من صعوده الى مكانهم.

كان الاخ الثالث او الناسك الكبير يبدو أصغر من أخويه وأكثرهم حيوية ونشاطا فلما شاهد الرجل استغرب من ذلك وساوره الشك من أقوال أخويه الكهلين من أنه أكبرهما تقدم الكهل من الرجل مرحبا به:

ـ أهلا بضيفنا العزيز. تفضل ادخل. البيت بيتك.

وقال لزوجته:

ـ لماذا لم تقدمي له الطعام والقهوة لا شك انه جائع!

ـ عرضت ذلك عليه لكنه رفض وأصر على البقاء في الخارج.

ـ هذا غير ممكن يجيء من مكان بعيد ويتعرض لمتاعب السفر ليصل الى هنا ولا يدخل بيتنا أو يأكل طعامنا.

قال الرجل معترضا:

ـ لا حاجة لي بأي شيء من الطعام وانما جئت اليك مستفسرا عن هذه الحبة ان كنت تعرف نوعها فقد عجز كل الكهول والرجال المسنين عن معرفة نوعها، ودلونا على أخيك الصغير، فذهبت اليه في صومعته أستفسره عنها، فلم يهتد الى معرفتها. فدلني على أخيه الاكبر منه فذهبت الى صومعته أستفسره عنها فلم يهتد هو الآخر الى معرفتها، فدلني عليك وقال ربما تكون على معرفة بها لأنك أكبر منه سنا، ولربما شاهدت مثلها في صغرك

تناول الكهل الحبة من الرجل فلما شاهدها ابتسم وهو يقول له:

ـ هذه حبة طعام ذرة

استغرب الرجل من اجابته وقال له:

ـ لكنها كبيرة جدا عن حبوب الذرة.

ـ كانت حبوب الذرة بهذا الحجم.

ـ متى كان ذلك؟

ـ قبل أن يملأ الجشع قلوب الناس!!

عاش في قديم الزمان رجل مع زوجته لوحدهما عيشة سعادة وهناء دون ان يرزقا بأطفال، فقلقت الزوجة من ذلك، أرادت ان يرزق مولوداً بأي صورة لتكتمل به سعادتهما الزوجية وليملأ فراغ حياتهما العائلية، فراحت تدعو الله وتتضرع اليه ان يرزقها طفلا، وتشكو أمرها للمنجمين وتطلب منهم التمائم والعقاقير التي ستساعدها على الحمل وتستفسر كل عابر سبيل ان يدلها على دواء لذلك، ولكن دون جدوى، الى ان كان ذات يوم مر فيها الخضر، فشكت له حالها قائلة له:

ـ لم يرزقني الله بذرية وأريد منك ان تدلني على دواء يساعدني على الحمل.

سمعها الخضر ورق لها قلبه فقال لها:

ـ دواؤك سهل ويسير وعلى مسافة ساعات من هنا. وما عليك الا ان تطلبي من زوجك ان يسير الى ذلك المكان، وسيجد هناك شجرة ترنج عليها حبة واحدة فقط يقطفها ويأتي بها اليك لتأكليها وستحبلين من ساعتك. لأنه من أكل هذه الترنجة يحبل من ساعته سواء كان رجلا او امرأة.

فرحت المرأة بقول الخضر وبقيت تنتظر عودة زوجها، لتزف له البشرى.

وعندما عاد روت له ما قاله لها الخضر وطلبت منه أن يذهب الى المكان الذي وصفه ليحضر لها ـ الترنجة ـ وحذرته من أكلها.

ذهب الرجل الى المكان المحدد فوجد شجرة الترنج كما وصفها الخضر

وعليها حبة ترنج واحدة قطفها وحملها معه وانصرف عائدا الى البيت، لكنه في طريق عودته بدأ يحس بالجوع يضايقه، ويشتد عليه حتى لم يعد قادرا على احتماله أو الصبر عليه، وليس معه شيئا يأكله لأنه لم يأخذ زادا معه من البيت، وأخذ يفكر في أكل ـ الترنجة ـ التي يحملها وتكبد مشاق السير ليحصل عليها ويعود بها الى زوجته،ودواءاً للحمل الذي وصفه لها الخضر، فيصرف تفكيره عن أكلها خاصة وقد حذرته زوجته من أكلها، لكن الجوع اشتد عليه ولم يقدر على مواصلة السير فراحت نفسه (تدهدهه) تزين له وتحرضه على أكل الترنجة ليخفف من قسوة الجوع الذي يعصر امعاؤه ولكن إذا أكلها فماذا ستقول له زوجته التي عقدت الأمل عليها ، وماذا عساه سيحدث له بعد أن حذرته زوجته، وهل معقول ان يجبل وهو رجل .

تجاهل رغبة زوجته وأملها في الاطفال، وتجاهل تحذيراتها ونصيحة الخضر، فأكل الترنجة وبقى يواصل سيره عائدا الى البيت بدونها ففرحت زوجته برؤ يته لأنها بقيت تنتظر عودته بشوق فسألته:

ـ هل وجدت حبة الترنجة مثلما قال الخضر؟

ـ نعم

ـ وهل قطعتها وعدت بها؟

ـ نعم

ـ أين هي؟

ـ جعت في الطريق فأكلتها.

حزنت لاجابته فقالت له معاتبة:

ـ ما الذي حملك على أكلها وانت تعرف انها الدواء الوحيد الذي سيفيدني وقد حذرتك من أكلها.؟

ـ لم استطع احتمال الجوع ولا مواصلة السير ولم أجد ما أكله، فأكلتها.

لاذت زوجته بالصمت ولم تجبه بشيء وخاب كل أمل لها في انجاب الاطفال وبقيت تنتظر ما سيكون من أمر زوجها.

ما هي الا أيام حتى بـدا على زوجها أعراض الحمل، وأخذت بطنه في

الانتفاخ يوماً بعد يوم فلم يجد بداً من الاختفاء في البيت لا يخرج منه خجلاً من مقابلة الناس، فقالت له زوجته:
ـ اذا وضعت ولدا سنحتفظ به واذا وضعت بنتا سنتخلص منها وافقها على رأيها وبقى ملازما للبيت الى أن حان أوان المخاض فولد بنتا خرجت من ركبته، ففرح بخلاصه من الحمل وقرر التخلص من الطفلة فعمد الى لفها في جونيه خيش وسار بها الى خارج القرية حتى وصل الى وادي تنصب على جانب منه (تولقة خصال) شجرة عالية يجري تحتها جدول ماء ، فتركها تحت التولقة وانصرف عائداً الى البيت .

شاهده نسر يعشعش فوق التولقة وهو يضع الطفلة المولودة ويتركها بمفردها هناك ويعود بدونها، فطار اليها وحملها معه الى عشه فوق الشجرة، وأخذ ينقل لها الماء والطعام ويقوم بتغذيتها وهي تنمو وتكبر حتى غدت شابة فائقة الحسن والجمال ولا تغادر عش النسر ابدا تتطلع منه الى ما يجري على الارض والى الناس والمشية المارين تحتها.

وكان سلطان البلاد قد اعتاد التجول على حصانه يوميا في انحاء الوادي ويعود الى قصره، فمر ذات يوم بجانب التولقة وأراد ان يسقي حصانه من الماء الذي يجري تحتها، فتوقف ونزل من على ظهر حصانه وقاده الى الماء ليسقيه، واذا به يشاهد على صفحة الماء صورة فتاة رائعة الجمال تنعكس عليها، فتوقف في مكانه ينظر الى صورتها على الماء وهو لا يعرف من تكون، وزاد من ارتباكه وحيرته عندما رأها تبتسم فرفع رأسه نحو أعلى التولقة ليشاهد الفتاة تطل برأسها من عش النسر تنظر اليه مبتسمة وتنعكس صورتها على الماء، فتعجب من جمالها ومن وجودها في عش النسر، وناداها متسائلا:
ـ انت من الانس أو من الجان؟

ابتسمت له وهي تجيبه:
ـ أنا أنسية.
ـ وماذا تصنعين في العش.
ـ أعيش فيه.

ـــ لماذا لا تنزلين منه، وسأخذك معي لتعيشي في قصر فاخر بدلا من العش.

ـــ قانعة بحياتي ولن أنزل من العش.

ـــ سأتزوجك، وستكوني سلطانة.

ـــ لن أغادر العش أبدا.

ـــ انزلي الى هنا لأتكلم معك..

ـــ لا

كان يتكلم معها محاولا اغراءها بما يملك من جاه وسلطان ليزيده رفضها تعلقا بها واصرارا على الزواج منها، فانصرف من تحت التولقة كئيبا حزيناً من رفضها العودة معه أو النزول من العش، وبقي في شغل شاغل من جمالها، وصورتها لا تفارق ذهنه، وكرر معها محاولته في اليوم الثاني والثالث وهي تكرر رفضها، فقرر الوصول اليها مهما كلفه الأمر.

استدعى أرباب سلطنته وسرد عليهم قصته معها وما بذله من أجل اقناعها بالنزول ورفضها ذلك، وطلب مشورتهم في كيفية اقناعها بالنزول أو التحايل عليها، فقال له أحدهم:

ـــ لن يفيد معها شيئا سوى الحيلة، وأنا أعرف عجوزا لا تعوزها الحيل في اقناعها بالنزول أو التحايل عليها.

فرح السلطان بذلك وقال له:

ـــ أحضرها الى هنا.

لما حضرت العجوز الى مجلس السلطان سرد عليها قصته مع الفتاة وقال لها:

ـــ اذا أنزلتيها من التولقة سأعطيك ما تطلبين.

فقالت العجوز تطمئنه:

ـــ الأمر بسيط وما عليك الا ان تصحبني الى مكانها وسأجعلك تعود بها الى قصرك.

ـــ وكيف ذلك؟

ـ أعطني كبش ـ خروف ـ وسكين لأحملها معي الى مكانها، واختفي انت على مقربة منا بحيث تشاهد الفتاة ولا تشاهدك هي، وسترى كيف سأتحايل عليها وأنزلها من التولقة وعندما تشاهدها بجانبي تقدم منا واقبضها وخذها معك.

ارتاح السلطان لفكرتها ووافقها على رأيها، وهو لا يدري كيف ستتصرف.

وفي صبيحة اليوم التالي استصحب السلطان معه العجوز وهي تقود الخروف وراءها حتى اقتربا من التولقة فاختفى السلطان وبقيت العجوز تواصل سيرها تقود الخروف متظاهرة بضعف نظرها الى أن وصلت الى مكان التولقة التي تعيش فوقها الفتاة، فجلست تحتها مسندة ظهرها الى جذعها لترتاح بعض الوقت، وقامت تطوي أكمام قميصها حتى تعرى ساعداها المعروقان وأمسكت الخروف بيدها اليسرى والسكين بيدها اليمنى وقالت بصوت عال لتسمع الفتاة.

ـ بسم الله الرحمن الرحيم.. الله اكبر.

وشرعت تذبح الخروف من مؤخرته وبظهر السكين.

كانت الفتاة تراقبها من العش منذ وصولها الا انها لم تتكلم معها ولكن عندما رأتها تذبح الكبش ـ الخروف ـ بتلك الطريقة استغربت من تصرفها ولم تتمالك من مناداتها.

ـ مش هكذا يذبحوا الكباش، ايش أنت مجنونة.

سمعت العجوز صوتها وتجاهلت معرفتها بمكانها، وتلفتت حواليها لتتعرف على مصدر الصوت لترى من يناديها، ولما لم تجد أحد عاودت محاولتها بذبح الخروف من وسطه وبظهر السكين، فعادت الفتاة صياحها:

ـ قلت لك مش هكذا يذبحوا الكباش.

توقفت العجوز مرة ثانية وتلفتت حواليها عن من يناديها وهي تتجنب النظر إلى أعلى الشجرة حيث تقيم الفتاة في عش النسر، فنادتها تقول لها:

ـ أنا أكلمك من أعلى الشجرة انظري الى أعلى لتشاهديني..

رفعت العجوز رأسها الى أعلى وهي تظلل عينيها براحتيها وقالت:

ـ ان نظري ضعيف ولا يساعدني على مشاهدتك.

قالت ذلك وعاودت محاولتها تذبح الخروف من بطنه، فصرخت فيها الفتاة مستنكرة، ولكن العجوز استمرت في محاولتها لتستمر الفتاة في استنكارها والسلطان يشاهد ذلك من مخبئه ويسمع حوارهما، وفي الاخير تظاهرت العجوز بالتعب والضيق وقالت للفتاة:

ـ أنا كما ترين عجوز مسنة وبصري ضعيف، أعملي معروف اذبحي لي الخروف.

رقت الفتاة لحالتها فطلبت من التولقة أن تحني جذعها لكي تتمكن من النزول من العش لمساعدة العجوز، فانحنت لها التولقة حتى لامست أغصانها الارض، فنزلت الفتاة من العش ووقفت بجانب العجوز، وأمسكت يد الخروف ولوتها على عنقه وبطحته أرضاً وتناولت منها السكين لتذبحه واذا بالسلطان يخرج من مخبئه ويجري نحوها ليمسك بها من ساعدها وهو يقول:

ـ وقعت بيدي وستعودين معي الى قصري لتعيشي فيه مكرمة معززة.

أدركت الفتاة ان العجوز تحايلت عليها وأنزلتها من عش النسر ليقبض عليها السلطان، ووجدت انه لا سبيل أمامها لمقاومته أو رفض أوامره فأذعنت له وأردفها وراء ظهره فوق الحصان وعادت معه الى القصر.

حرص السلطان على أن يوفر لها كل ما تطلب، مرغبا لها الاستقرار الى جانبه وبقيا يعيشان في جو من السعادة، الا أن الغيرة ملأت قلب أم السلطان من جمال الفتاة وتعلق ابنها بها، فبقيت تترقب الفرص لتتخلص منها، الى ان كان ذات يوم نوى فيه السلطان السفر الى مكة لاداء فريضة الحج فاستدعى أمه وقال لها:

ـ أنا ذاهب الى بيت الله الحرام لاداء فريضة الحج، وزوجتي غريبة هنا لا أهل لها ولا أقارب، سأتركها أمانة في عنقك الى أن أعود من الحج فرحت أمه بما سمعت وقالت تطمئنه:

ـ سأنزلها منزلتك في نفسي فلا تخشى عليها شيئا.

سافر السلطان مطمئنا إلى أقوال أمه ووعودها بالعناية بزوجته أثناء غيابه، الا أن أمه وجدت في سفره فرصتها التي انتظرتها لتعبّر عن ما في نفسها من كراهية للفتاة، وراحت تفكر في طريقة للتخلص منها قبل ان يعود اليها من الحج، فلم تجد وسيلة أفضل من اماتتها جوعا، فحبستها في غرفة منفردة ومنعت عنها الاكل والماء، فقالت لها الفتاة تترجاها:

ـ حرام عليك تتركيني بدون غذاء، اعملي معروف اعطيني ما يسد رمقي.

ـ لن اعطيك شيئا بدون مقابل.

ـ لا أملك ما أدفعه لك.

ـ أعطيني شعر رأسك.

حاولت الفتاة أن ترفض قص شعرها مقابل ما يخفف من جوعها إلا أن الجوع اشتد عليها فسلمت رأسها لأم زوجها تقص شعرها مقابل قليل من الطعام، عاشت عليه أيام، فعاودت طلبها تقول لأم السلطان :

ـ اعطيني لوجه الله شيئا آكله؟

أجابتها بصوت غليظ:

ـ لن أعطيك شيئا الا اذا أعطيتيني احدى أذنيك.

حاولت الفتاة ان ترفض وتقاوم الجوع، وعندما عجزت عن ذلك تركتها تقطع اذنها، مقابل وجبة اخرى عاشت عليها أيام.

استمرت أم السلطان في تجويع الفتاة في محبسها ولا تعطيها أي وجبة الا مقابل عضو من اعضائها حتى أتت على يدي الفتاة ورجليها وعينيها، ولما لم تجد ما تنتزعه منها أو تدفعه الفتاة ثمنا لطعامها وقد غدت كسيحة عمياء أخرجتها أم السلطان من القصر ورمت بها وسط قمامة مجاورة وهي مؤمنة ان الفتاة ستموت جوعا وسط القمامة، وحفرت حفرة وسط الحديقة دفنت فيها قطعة خشب ملفوفة بقماش ابيض، ووضعت أمه بقماش ابيض، ووضعت حواليها بعض الاحجار حتى بدت بصورة قبر لتقول لابنها ان أمه ماتت وهذا قبرها عندما يعود ويسأل عنها، وعمدت الى التنكر وتغيير ملامح وجهها ليطابق وجه الفتاة لتقدم نفسها لابنها عند وصوله باسم زوجته. ؟؟

بقيت الفتاة تعيش على فضلات الأكل التي تجدها وسط القمامة تتشمم ما يلقى الى جانبها فاذا شمت رائحة طعام تناولته بشفتيها تتحسسه وتلوكه بأسنانها حتى كان ذات يوم تحسست بشفتيها حقة صغيرة واذا بصوت يقول لها:
ــ أنا طوع أمرك يا سيدتي:

فسألته مستغربة:
ــ من أنت؟
ــ أنا خادم هذه الحقه الذي بين شفتيك.
ــ ومن ناداك ؟
ــ انت دعكتيه وجئت ملبيا طلبك تمني علي ما ترغبين وسأحققه لك حالا.
ــ أتمنى أن أعود مثلما كنت بكامل صحتي وعافيتي وشبابي.

فما هي الا لحظات واذا هي تعود الى ما كانت عليه قبل سفر زوجها من شباب وجمال ونضارة فكادت تطير فرحا، وتناولت تلك الحقة التي عثرت عليها بشفتيها تفكر فيها وفيما جرى لها في غياب زوجها من أمه وتسرح في مستقبلها، فقررت التنكر والاختفاء الى ما بعد عودته لترى بماذا ستفسر له أمه غيابها، وماذا سيعمل واذا نساها أو تجاهلها أو صدق اعذار أمه فستعمل هي على تذكيره بنفسها وتخبره بما صنعته أمه معها، ففركت تلك الحقة بيدها واذا بصوت يقول لها:
ــ خادمك المطيع يا سيدتي.

فقالت له:
ــ أريد منك ان تبني لي بجانب قصر السلطان قصراً أكبر وأحسن من قصره وحديقة أكبر من حديقته، وتحوي من الثمار والفواكه والرياحين مالا تحويه حديقة قصره، وفيها أشجار تثمر في غير أوانها.

ــ أمرك يا سيدتي.

انتصب قصرها الكبير الى جانب قصر السلطان بحديقته الواسعة وأثاثه الفاخر، وبقيت تعيش فيه يحيط بها الخدم والعبيد.

عندما عاد السلطان الى بلده شاهد القصر الجديد فاستغرب من وجوده

وسرعة بناءه، وهو يسائل نفسه عن من يكون صاحبه واستقبلته امه متقمصة صورة زوجته مرحبة به مبدية فرحها بعودته فسألها مستوضحا:

ــ لماذا لم تستقبلني أمي؟ أين هي؟

طأطأت رأسها وأجابته مبدية حزنها:

ــ الله يرحمها ماتت بعد سفرك وقبرناها في حديقة القصر.

صدق قولها وحزن لوفاة امه، وأخذت هي في مواساته لتخفف من وقع الخبر على نفسه، وبعدها سألها:

ــ متى بني هذا القصر الذي بجانبنا ومن هو صاحبه؟

ــ استيقظنا ذات صباح فوجدناه منتصبا بجانب قصرنا ولا نعرف من هو صاحبه، ولا كيف بناه، ولا من يقيم فيه، لأنا لا نشاهد أحد سوى العبيد في الحديقة.

زاد استغرابه مما سمع، وتشوق لمعرفة ذلك، وبقي يعيش معها ويعاشرها وهو لا يعرف أنها أمه حتى ظهر عليها أعراض الحمل فزفت له الخبر ففرح بما سمع وبارك لها بالمولود المرتقب.

أخذت نفسها تشتهي ما تشتهيه نفوس الحوامل من مثيلاتها فيوفر لها السلطان ما تطلب، واشتهت نفسها ذات يوم ــ رمان ــ في غير موسم الرمان فقالت له:

ــ نفسي تشتهي رمان.

ــ ولكن نحن في موسم لا يثمر فيه شجر الرمان.

ــ اعمل معروف ابحث لي عن حبة واحدة.

ــ من أين سنجد هذه الايام؟

ــ أشعر ان روحي ستفارقني اذا لم آكل رمان.

انزعج من كلامها ونادى العبيد يقول لهم:

فتشوا اشجار حديقتنا شجرة شجرة وغصنا غصنا لعلكم تعثرون على حبة فيها.

انتشر العبيد بين أشجار الحديقة يفتشون أشجار الرمان يبحثون عن حبة فيها فلم يجدوا فعادوا الى السلطان قائلين له:

ــ لقد فتشنا اشجار الرمان شجرة شجرة وغصنا غصنا فلم نعثر على حبة واحدة منها.

ــ لا بد من الحصول على واحدة منها بأي صورة وبأي ثمن.

ــ ماذا بمقدورنا ان نعمل، ونحن في غير موسمه.؟

لاذ السلطان بالصمت بعض الوقت لا يدري ماذا يقول لهم، فتذكر القصر الكبير الذي يجاور قصره والحديقة الكبيرة المحيطة به فقال لأحد العبيد يأمره:

ــ اذهب الى القصر الذي بجانبنا واسأل أصحابه اذا كانت اشجار الرمان مثمرة يعطونا حبة واحدة للسلطانة لأنها توحمت على رمان . ذهب العبد الى القصر المجاور وطرق بوابته ودخل وهو يقول :

ــ يا أصحاب القصر، السلطانة توحمت على رمان، هل في حديقتكم حبة رمان. . استمر يقول ذلك وهو يواصل سيره حتى وقف امام الفتاة التي أجابته تقول :

ــ يا ترنج ، يا ترنجه .

أمي تمنتني وأبي حبل بي والنسر رباني
وابن السلطان حبني
وتزوج أمه وسيبني
يا مقص قص لسانه لا يقول ي[1] .

ما ان أنهت كلامها حتى امتد مقص يقص لسان العبد الذي انصرف عائداً الى قصر السلطان متمتمًا بشفتيه ومؤشراً بأصبعه الى فمه الخالي من اللسان موضحاً للسلطان ما حدث له ، إلا أن السلطان لم يفهم ما قاله العبد ولا عرف

(١) في المراوعة يقولوا (يا مقص قص مشدته) ، وغيرهم يقولون (يا مقص قص كوته) .

لماذا قطعت لسانه ، فأرسل عبداً آخر الى القصر المجاور يطرق بابه ولما فتح الباب ، قال لهم ما قاله الأول ، فأجابته الفتاة بما أجابت الأول وأمرت المقص بقص لسانه ليعود الى السلطان يتمتم بشفتيه ومشيراً الى لسانه المقطوعة ، فيستغرب من ذلك ويرسل غيره ليحدث ما حدث للذي قبله حتى قطعت ألسن ستة من رسل السلطان الذي ملا الحنق نفسه وقرر ان يذهب بنفسه الى القصر ليعرف ماذا جرى لرسله ، ولما طرق الباب وفتح له راح يردد طلبه حتى وقف أمام الفتاة فأجابته بما أجابت رسله الستة تقول :

ــ يا ترنج يا ترنجه
أمي تمنتني وأبي حبل بي
النسر رباني
وابن السلطان حبني
وتزوج أمه وسيبني

قالت ذلك ولم تأمر المقص بقطع لسانه مثلما فعلت مع رسله ، فلما عرف أنها زوجته ، وأن أمه عاملتها بعكس ما طلب منها قبل سفره واستغرب عن من تكون التي في قصره ، فاقترب من الفتاة يسلم عليها يستوضحها عما حدث لها وعاد بها الى قصره ليقف معها قبالة أمه التي صعقت من مشاهدة الفتاة معه ، وأمر العبيد بقتل أمه ودفنها في حديقة القصر وبقي يعيش مع الفتاة في سعادة وهناء .

الفهرس